
أحمد سعيد
وجه
المرايا
رواية

# وجه المرايا

الكتاب : وجه المرايا

المؤلف : أحمد سعيد

تصميم الغلاف : إسلام علام

تدقيق لغوي : محسن عباس غريب

رقم الإيداع : 2014/11143

الترقيم الدولي : 1-70-6436-977-978

الطبعة الأولى : 2014




20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة

ت-02-35860372 011-27772007

Noon_publishing@yahoo.com

# وجه المرايا

رواية لـ

## أحمد سعيد



## إهداء

إليها وحسب..

إلى أمي.

## (١)

أقف على أعتابِ بدايةٍ جديدة، أنطلق منها نحو العالم الفسيح، أنهيت مرحلة الثانوية العامة بعد جهدٍ كبير، أتذكر عندما كنت في المرحلة الإعدادية، لم أكن أخطط لمستقبلي، عندما يسألني أحدٌ: ماذا تريد أن تصبح عندما تكبر يا كريم؟!

أبتسم ببلاهة قائلاً: لا أعرف.

لم أكن أتوقع، وأنا في بداية المرحلة الإعدادية أن يُصبح حُلم حياتي أن ألتحق بكلية الهندسة، وأنا الطالب الذي يرى الرياضيات شبحاً يؤرق حياته، قررت في لحظة تحدٍ أن أقهر ذلك الشبح الثلجي؛ فخصصت لها وقتاً إضافياً، وتابعت دروسي مع الأستاذ عبد المنعم مدرس الرياضيات، صديق أبي " رحمه الله ".

أسكن بمنطقة شعبية بالجيزة، أعشق زحامها، وأهلها البسطاء، نهاية الشارع الذي أسكن به مغلقة، على جانبيه يفرش بائعو الفاكهة والخضروات، ينادون على بضاعتهم ليلاً ونهاراً بلا توقف أو شعور بالملل، ضجيجٌ لا ينتهي، أستمتع به، كأنه معزوفة نادرة، لم تؤلف ولم يعزفها بشري من قبل، تعزفها الطبيعة منذ الأزل، عزفٌ يتجدد كل مرة.

ظهرت نتيجة التنسيق، الحمد لله تأهلت لدخول كلية الهندسة، رغم أن مجموعي لا يؤهلني إلا لجامعة أسيوط إلا أن فرحتي لا توصف.

جاءت خالتي عزة صديقة أمي وابنتها لُبنى؛ لتهنئاني، لُبنى صديقة طفولتي، أرى الدنيا بعينيها، أشعر أن نجاحي هو هدية لها، ابتسمَتْ فابتسمتْ الدنيا.

_مبروك يا كيمو، ربنا يوفقك دائماً.

_الله يبارك فيكِ يا لولو، عقبي لك، يارب تحققي كل أحلامك الجميلة.

لا أعلم بالتحديد متى بدأت مشاعري نحوها تتغير، لم أعد أراها تلك الطفلة الصغيرة التي أشاكسها وألعب معها، عندما نجلس سوياً لا نتكلم، نتبادل النظرات والابتسامات.

_هل ستظل محدقاً بي هكذا، وتنسى الآيس كريم الذي وعدتني به ؟!.

_أنتِ تأمرين يا أجمل لولو في الدنيا كلها.

نسير بلا وجهةٍ، نأكل آيس كريم، نرى الشوارع بلونٍ آخر، تمتزج رقتها بالضجيج؛ فترسم لنا لوحةً ساحرة، تأخذنا لمدن الحب القديمة؛ فنتمايل في نشوةٍ ضاحكين. حبها يطوف داخلي، كسفينة تجوب بحار العالم ولا تستقر، بحركة لا إرادية أمسك يدها، تتورد وجنتاها خجلاً، أحاول أن أُخرج تلك الكلمة الساكنة بقلبي، فيغافلني ويهتز بقوةٍ وعنف.

_أحبكِ.

الصمت يغلف وجهها، فتقفز فراشات حبها وتفضحها، تتشبث بيدي؛ وكأن روحها تتعلق بروحي، نظرت إليها قائلاً: وأنتِ ؟!.

أومأت برأسها إيجاباً، تفتحت زهور وجهي وتوردت أساريري، الطريق صار قطعة من الجنة.

_أريد أن أسمعها.

أجابت بصوتٍ هامس: أحبكَ.

كالطير السابح في بحارٍ زاهية، يتراقص قلبي، وتتسمر عيناي على وجهها الشفاف، ننسى كل شيءٍ حولنا، حديثنا رسولٌ لقلبينا، يعلو فوق المعاني التي تتساقط أمام ما نشعر به.

خطوات الحلم تسير، ولا يجب أن أتخلف عنها، أستعد للرحيل، أُعدُّ حقيبتي، تشاركني لُبنى في كي ملابسي، وترتيب أغراضي، تتلامس أيدينا، وتتوحد أرواحنا، يشق الحب قناة فرح تصل بين حدائق قلبنا.

_لن أستطيع توديعك، صدقني لن أقدر.

_سيعني لي الكثير أن أطالع وجهكِ، وأنا أبتعد يا حبيبتي.

جاء عمي ليوصلني بسيارته لمحطة القطار، التفتُ يميناً ويساراً باحثاً عنها؛ لكنها اختفت وذابت، بحثتُ عنها في عيون أمي وخالتي عزة، فقدت الأمل، وضعت حقيبتي في السيارة، وجلست بالكرسي الأمامي

بجوار عمي، بدأنا التحرك، عيناي معلقةٌ بالخلف ونحن نبتعد، ظهرت فجأة، تجري نحو السيارة تلوح لي بيدها، عيونها باكية، لم أقدر أن أقاوم دموعي فانهرتُ باكياً مثلها. ربت عمي على كتفي، وقال لي مستحثاً رجولتي ورباطة جأشي:

_أعلم أن هذه المرة الأولى التي تفارق فيها أمك والبيت الذي تربيت به؛ لكنه مستقبلك وحياتك القادمة، لا تدع أي شيءٍ يثنيك عن تحقيق أحلامك.

وصلنا المحطة، أخذني بين ذراعيه مودعاً. ركبت القطار، وجه لبنى رفيقي في سفري، عيناها الحانيتان، ابتسامتها الدافئة، صوتها وحركة شفتيها، وهي تقول: أحبك. دموعها التي هزت كياني.

عيني تراقب الطريق من النافذة، أشغل نفسي بِعَدِّ أعمدة الإنارة وأشجار المانجو، أترك جذوري هناك، حيث أمي وحضنها الذي يبعث في نفسي هدوءاً وسلاماً.

لم أستطع النوم، كلما حاولت أن أريح جسدي يأبى، ويظل يدور في متاهات مشاهد الذاكرة المعادة.

وصلت أخيراً إلى أسيوط، لم يكن لدي خططٌ أو برنامج محدد، دلني أحد الأهالي على بيت من بيوت الشباب بجوار المحطة، ذهبت إليه، حجزت غرفةً، ووضعت بها حقائبي.

كنتُ كطفل تُرك في عالمٍ غريبٍ بدون أمه، يحاول أن يخطو أولى الخطوات خائفاً. صوتُ لُبنى يعطيني حافزاً لأكمل وأحقق حُلمي، تتابعني دقيقة بدقيقة بهاتفها، أسمعها عبر الأثير، ويتردد صدى صوتها داخلي.

السكن القريب من الجامعة مرتفع الإيجار، يجب أن أكون أكثر اقتصاداً، معظم ما وجدته سكن مشترَك، بالغرفة أكثر من شخص، لن أستطيع التأقلم هكذا، عليّ التروي لأجد سكناً ملائماً.

كثفت بحثي في المناطق البعيدة نسبياً عن الجامعة، الوليدية خنقتني بزحامها، السادات ضجيجٌ وفوضى، أخيراً عثرت على بيتٍ بمنطقة الأربعين، اصطحبني مالكه عم ياسين لأراه وأعاينه، أصابتني قشعريرة ورجفة عند دخولي من البوابة الخشبية، البيت مكون من طابقٍ واحد وحديقة واسعة، أشجار يوسفي جافة بلا أوراق، غرفة على الجانب بها طلمبات المياه، قال لي عم ياسين:

_الماء شحيحٌ هنا، نستخدم الطلمبات عند الحاجة، ونخزن ما نحتاجه في خزانٍ فوق السطح.

المكان هادىء كبدء الخليقة، صوت الرياح يحرك ستائر البيت ونوافذه، طراز حديث، صالة واسعة وعدة غرف مفروشة بأثاث جيد، على جدران الصالة رسومات طفولية بالقلم الرصاص، وجوه خائفة وأخرى باسمة، غرفة أطفال جميلة، جدرانها مدهونة باللون الوردي،

سرير صغير نسبياً، وخزانة ملابس صغيرة أيضاً، نافذةٌ شرقية ذات ستائر وردية، تُسقط ضوءها على السرير، شعرت براحة كبيرة في تلك الغرفة، ستكون هي غرفتي التي أنام بها، ساورتني الشكوك تجاه البيت، لكني لن أجد فرصة أفضل من تلك، الإيجار مناسب، يمنحني استقلاليّة، سأتعب قليلاً لبعده عن الجامعة، لكنني لن أجد كل شيءٍ متاحاً.

ـ شرطي الوحيد عدم تغيير نظام البيت من أثاث ومفروشات.

انتابتني الدهشة من هذا الشرط الغريب، لكنني أجبته:

ـ لا تقلق يا عم ياسين، فأنا لن أغير شيئاً؛ فهي فترة الدراسة وستمر سريعاً.

المنطقة المحيطة بالبيت تكاد تكون خالية، أقرب بيت يبعد مسافة مائة مترٍ، مقهى عم ياسين يقف شاهداً على الزمن، كراسي خشبية قديمة، وأخرى بلاستيكية جديدة الصنع، ومكتب قديم يجلس عليه عم ياسين ببذلته كلما كان متواجداً، فوقه مباشرة صورة معلقة لنجيب الريحاني ويوسف وهبي.

أعطيته مبلغاً من المال مقدماً لحجز البيت، وذهبت لجلب حقيبتي من نُزل الشباب، عدت سريعاً، قمت بطباعة صورة لُبنى من على هاتفي المحمول عند أحد مراكز الكمبيوتر، وضعتها على الحائط المواجه لي، أنظر إليها مبتسماً، وأتذكر لحظاتنا القصيرة بعد الاعتراف بمشاعرنا.

أتنقل عبر أجزاء البيت على صوت نانسي عجرم " إحساس جديد ". يسكنني إحساس منتشي فَرِح، اشتقتُ إليكِ يا حبيبتي.

أذهب للجامعة، وأعود بعد يومٍ شاق من المحاضرات والفصول العملية، أشتري ما يكفيني من طعام، يقتلني الروتين، ما أفعله اليوم هو ما أفعله غداً هو نفسه ما فعلته بالأمس.

انتهيتُ من مذاكرتي متأخراً.. أحاول النوم ولا أستطيع، أتقلب على الفراش يميناً ويساراً، أغفو قليلاً، ينتشلني صوتُ بكاءٍ أسمعه بين النوم واليقظة، أقوم فزعاً، أبحث عنه في كل مكان بالبيت، لا أجد شيئاً، أُبعد عني أفكاراً تخيفني، ما حدث لابد أن يكون مجرد شيءٍ بخيالي؛ فلست معتاداً على النوم بعيداً عن غرفتي في بيتنا. يخترقني الصوت مرة أخرى، كان هذه المرة أكثر وضوحاً وقوة، أرتعد وأردد آية الكرسي، اتصلت بأمي، ما إن وصل صوتها لقلبي شعرت بالأمان والراحة.

_أوحشتني يا حبيبي.

_وأنتِ أيضاً يا أمي، أشتاق إليكِ كثيراً.

_طمئني عليك يا كريم.

_ الحمد لله بخير، أحاول النوم لكني لا أستطيع، لست معتاداً على النوم بعيداً عنكِ.

ـ ربنا يريح بالك يا حبيبي.

ظلت تحادثني؛ حتى غلبني النوم، أحلامٌ مخيفة تطاردني، أصواتٌ مزعجة تأتيني من كل مكان، قمت فزعاً أكثر من مرة.

الصباح يطرد الخوف، يأتي محملاً بالأمل والسكينة، صوت لُبنى يأتيني عبر هاتفي المحمول يحملني طفلاً ويدللني. أعود بذاكرتي للطفولة، كنت في العاشرة من عمري أنا وأصدقائي، صاح أحدهم: لن نمر من هذا الطريق المظلم، ألم تسمعوا عن الجنية "أم الشعور"؟!، تسير ليلاً خلف الضحية بشعرها الواقف مثل أعواد الصبار، وما أن يلتفت حتى تهاجمه وتنقض عليه.

ضحكت كثيراً من كلامه قائلاً: أنا لا أخاف، سأسير بمفردي.

أتذكر شعوري بالرعب والفزع ، وأنا أتوقع ظهور "أم الشعور" في أي لحظة، أتذكر أيضاً إحساسي بالزهو بعد أن مررت من الطريق بمفردي.

لن أفر من خيالات لا أساس لها من الصحة، لن أجعل وهماً يقتل حُلمي وشجاعتي، خوفي من المجهول لن يجعلني أهرب الآن.

***

انشغلت طوال اليوم بدروسي في الكلية، عدت مساءً ؛ لينتابني الخوف من جديد، أعددت طعامي ، وجلست أتناوله في صالة البيت، كلما

نظرت إلى بقعة على الجدران، أرى وجه فتاة صغيرة مرسوماً بالرصاص، أشعر أنها تنظر إليّ نظرات حزينة. هاجمتني وساوس وهلوسات فلم أستطع النوم، سمعت آذان الفجر، قمت وصليت، ألقيت بجسدي على السرير، ونمت نوماً عميقاً، استيقظت الساعة الثانية ظهراً، ضاع عليَّ اليوم الدراسي.

خرجت أتمشى قليلاً بعد صلاة العصر، منطقة الأربعين مكونة من عمارات متشابهة على نفس الطراز، على أطرافها حقول زراعية، جلست قليلاً على قهوة عم ياسين، عندما رآني جاء إلى وصافحني بحرارة.

_ نورت يا كريم يا ابني.

_ ربنا يخليك يا عم ياسين.

تدور الأسئلة داخلي، كلما حاولت إخراجها للعلن لا أستطيع، ماذا سأقول له ؟! هل سأخبره بأني أتوهم أشياءً لا وجود لها ؟! هل أخبره بأنني أشعر أن أشباحاً وعفاريتَ تسكن البيت؟!

أتجاذب معه أطراف الحديث؛ علني أجد إجابةً أو أعرف منه أي شيء، لكنني لم أستنتج من حديثه شيئاً يُذكر، أخذ يتحدث عن عمره الذي ضاع هباءً في أسيوط، وعن حلمه الذي لم يحققه.

_وأنا في مثل عمرك يا كريم يا ولدي، كنت محباً للتمثيل، اشتركت في مسرحيات كثيرة في الجامعة، رحم الله أبي منعني من التمثيل، قال لي أتريد أن تأكل العائلة وجهي؟!.

أشعر بأنه يخفي شيئاً عني، شيءٌ غامضٌ يحيط بالبيت.

جاء الليلُ، وعادت معه مخاوفي، أجلس على السرير، أتصفح الكتب الدراسية، أقلب فيها تائهاً..أسمع صوت البكاء مرةً أخرى، استطعت هذه المرة أن أميّزه، إنه صوت أنثوي، قلبي يدق بشكلٍ سريع، أتمالك نفسي، وأخرج لأرى مصدر هذا الصوت، اجتزت منتصف الصالة، حل الظلام فجأة، قلبي سيغافلني، ويقفز من جسدي، ضرباته تتسارع أكثر، أمامي مباشرة استطعت برغم الظلام رؤية وجه أنثوي مرسوماً بالدماء على الحائط، شعرت ببكائه، هو نفس الوجه المرسوم بالرصاص.

ابتعدت سريعاً، ركضت ناحية غرفة نومي، اختبئت تحت البطانية، صوت البكاء يزداد، خطواتٌ خفيفة قادمة نحوي، فقدت الوعي.

أيقظتني أشعة الشمس الحارقة، زحفت من النافذة وسقطت على عينيّ، الساعة الواحدة ظهراً، تأخر الوقت، لن أذهب للكلية اليوم، سأكون طالباً فاشلاً، البداية لا تبشر بخير.

أبحث في كل مكان بالبيت؛ علني أجد شيئاً يجلو عقلي؛ فأفهم ما يحدث؛ لكنني لم أجد سوى صندوقاً خشبياً مليئاً بجرائد قديمة في غرفة النوم الرئيسية.

توددت للأستاذ زهران " صاحب سوبر ماركت زهران " الذي يُوجَد بالقرب من المقهى، أشتري منه ما يلزمني وأبادله الحديث.

_هذا بيت الأستاذ عبد القادر أخو الحاج ياسين، مدرس لغة إنجليزية، كان يقيم به هو وزوجته الأستاذة سهام وابنته نور، بناه بعد عودته من الإعارة بالإمارات.

_أين ذهبوا ؟!

_اختفوا.

_اختفوا ؟!

_كل متعلقاتهم كما هي، لم يتغير شيء منها أو يختفي، بحث الحاج ياسين والحاج عبد الرحيم والد الأستاذة سهام عنهم في المستشفيات وأقسام الشرطة، لكنهما لم يصلا لأي نتيجة.

بعد عدة أيام عُثر على الأستاذ عبد القادر ميتاً عند قناطر أسيوط، علمنا من تحقيقات الشرطة بأن بعض الأشخاص رأوه وهو يقفز من فوق القناطر، لكن حتى الآن لم يتم العثور على زوجته أو ابنته.

أصابتني رجفة خوفٍ لم أستطع إخفاءها، سألته:

_ لماذا لم يسكن البيت أحدٌ رغم أنه فرصة لأي عائلة صغيرة؟!

_بعد مرور سنة على اختفاء عائلة الأستاذ عبد القادر، قام الحاج ياسين بتأجير البيت لرجل وأسرته، لكنهم بعد ثلاثة أيام تركوا البيت، لم يطالبوا باسترداد ما دفعوه مقدماً.

## (٢)

امتحنت أعمال سنة لـ "مادة التفاضل". حملت حقيبتي وذهبت لموقف السوبر جيت، لم يفارقني ذلك الوجه الذي رأيته على الحائط، ابتسامته الحزينة المقترنة بالدموع ؛ وكأنها خناجر تمزق قلبي.

وصلت متأخراً البيت، قابلتني أمي بالأحضان، قبلتني في كل أجزاء وجهي، نامت بجواري شعرت بالأمان بين ذراعيها، ظلت طول الليل ناظرة إليّ، تبتسم وتقول لي:

-دعني أشبع منك قليلاً يا حبيبي.

حاولت رؤية لُبنى؛ لكنها تتهرب مني، ذهبت إلى بيتها قبل أن أسافر، فتحت لي الباب، تحاشت نظراتي، اندهشت من معاملتها الغريبة، سلمت على خالتي عزة وذهبت.

حاولت أن أفهم لماذا تفعل معي ذلك، لكنني فشلت. نظرات عيونها أُطفئت، لم تعد لبنى التي أعرفها، شعرت بالاختناق، هذا العالم الواسع الرحب يضيق عليّ، ويضغط على روحي وجسدي، تمشيت على النيل كما كنا نفعل، شعرت بالوحشة دونها، رجعت للبيت، حزمت حقائبي، ودعت أمي التي تعلقت بكتفي محاولة إثنائي عن الذهاب الآن.

_امكث قليلاً يا حبيبي، البيت من غيرك مظلم.

_أنتِ نوارة البيت يا ست الكل، لابد أن أذهب الآن؛ فالامتحانات على الأبواب.

أعود لأسيوط بحيرةٍ شديدة، أحاول تصفية ذهني بابتعادي عن التفكير في التغير الذي أصاب لُبنى، أغرق نفسي بالمذاكرة؛ لكن صورتها تقفز بين الكلمات والسطور، أذهب للمطبخ لعمل شاي، مع أولى خطواتي أرى أمامي امرأة واقفة تبكي وتأن، تقشر البصل وتقطعه، أرتعد وأخرج مسرعاً للصالة..بخطواتٍ خائفة أتجه للمطبخ مرة أخرى، لا أجد شيئاً.

على نيران الخوف والتوجس أُعد الشاي، أعود لغرفتي..هذه المرأة ليست الفتاة المرسومة على الجدران، هي امرأة يافعة.

صوت البكاء مرة أخرى! هذه المرة أقوى وأعلى، ينبعث من كل مكان بالبيت، وحتى من الحديقة، أمامي مباشرة على الحائط المواجه لي عبارة تكتب بالرصاص..

_أخاف من أبي بشدة، منذ عاد، وهو يتصرف بشكلٍ غريب، أمي أيضاً خائفة.

كانت كل كلمة تُكتب ما تلبث أن تُمحى سريعاً.

_ إنه ينظر لي نظرات مخيفة.

تملكني إحساس بالحزن، لم أكن خائفاً في تلك اللحظة، أكملت مذاكرتي، ولأول مرة منذ جئت لهذا البيت أنام بكل هذه الراحة..

أنام على جنبي الأيمن، أشعر بشخصٍ يجلس ورائي، إنها نفس الفتاة الصغيرة، تلمس بيديها الندوب التي امتلأ بها ظهري، تُكتَم صرخاتي، أشعر بأني مشلول لا أقدر على الحركة، ماذا يحدث لي؟! تسقط دموعها فوق ظهري، يتحول الجدار أمامي لمرآة، أنظر للصورة المنعكسة لصورتي، إنها لشخصٍ آخر!! أصرخ بكل قوتي، أقوم مسرعاً أغسل وجهي ورأسي بالمياه الباردة، أتحسس وجهي وأنا أشاهده في المرآة التي فوق الحوض، مازلت أشعر بتلك الندبات في كل أجزاء جسدي، أشعر بلمسة يدها فوق ظهري، أشعر بقطرات دموعها..أشعر بحزنها.

مر أسبوع دون أحداث غريبة، أشعر بأن هناك شيئاً ينقصني، أبحث عن تلك الفتاة في كل مكان بالبيت، أقف بالساعات متأملاً وجهها المرسوم بالرصاص، تصيبني في بعض اللحظات حالة من الحزن غير المبرر وأنا أنظر إليها، ما ألبث أن أبكي بحرقة شديدة.

في هذا الأسبوع زاد تحصيلي الدراسي..طوال اليوم في الجامعة، وبالليل أذاكر بكل جد، وأرسم اللوحات المطلوبة بالكلية.

كم أفتقدك يا لُبنى، كلما حاولت الاتصال بها أجد تليفونها مغلقاً، قلبي غير مطمئن بالمرة.

_ فلأتصل بها على الخط الأرضي.

الجرس يرن، قلبي يدق بعنف وفرح، إنها هي، كنت كالأرض التي حرمت المياه أعواماً طويلة، وها هي فرحة استقبال أول قطرات المطر.

_ألو..كم أشتاق إليكِ يا نور عيني، أفتقدك كثيراً يا لُبنى.

_كيف حالك يا كريم؟ ثواني أنادي على ماما.

أسمعها تنادي على خالتي: كريم على التليفون،يريد أن يسلم عليكِ.

_الو..كيف حالك يا حبيبي ؟

_بخير يا خالتي، كيف حالك أنتِ؟!

_بخير يا عيوني، أدعو لك دوماً.

كنت كالذي اصطدمت به مائة سيارة، واحدة إثر واحدة. شعرت بحاجتي الشديدة لتكسير شيء ما؛ لأُخرج ما بي من غضب، فلتكن رأسي إذاً التي تُكسر.

لا أتناول الطعام إلا قليلاً، وجهي كوجه نُحت من صخر بلا أي انفعالات.

لا أجد مذاقاً لأي شيء، أذهب للكلية محاولاً قضاء أكبر وقت ممكن فيها، أجلس بالمكتبة المركزية، أتوه عن كل شيءٍ بالمذاكرة، أخرج مضطراً حينما ينبهني الموظف بموعد الإغلاق.

بعد تناول وجبة الغداء بمطعم البركة القريب من الجامعة، أسير على قدمي بشارع الجمهورية، حتى أصل إلى شارع النميس، وأجلس على النيل، أغمض عيني كلما رأيت صورة لُبنى على مياهه، فأراها مطبوعة على قلبي بصورة أبيض وأسود.

رجعت متأخراً يوم الخميس، مررت على سوبر ماركت زهران؛ اشتريت شاياً وسكراً وبعض المأكولات الخفيفة، أفتح الباب الخارجي، أسير في الحديقة، تنتابني قشعريرة باردة رغم أننا بالصيف، أفتح باب البيت، أرى في منتصف الصالة رجلاً مجهول الملامح، كظلٍ ترك ضوء العالم، ومكث هنا في الظلام، أرتد للوراء بحركة لا إرادية، أحدق مرة أخرى بوجهه، إنه نفس الوجه المنعكس على صورتي بالمرآة.. شعر أبيض، ووجه أسمر، شارب مقصوص الجوانب. كأنه يحادث أحداً حوله، نظرات الذعر ترسم لوحة مبعثرة المعالم على وجهه.

يصرخ: لم أفعل شيئاً.

يُنصت وكأنه يستمع لأحد ويجيب: لا أعرف شيئاً صدقوني.

يرتعد وكأنه أصيب بماسٍ كهربائي، يصرخ بشدة من الألم: حرام عليكم يا أولاد الكلب.

تدور الأرض بي، أشعر بأن أجزاء البيت تتداخل بعضها البعض، غرفة نومي بداخل الصالة، المطبخ يهتز بشدة، وبين كل هذا أرى ومضات سريعة لصورة لُبنى تظهر كوميض الكاميرا، أحاول الوصول للحمام، أقيء بشدة، حرارتي مرتفعة، أصل لغرفة نومي، ألقي بجسدي على السرير، أهذي بكلمات غير مفهومة، أغفو وأصحو على تلك الحالة، أسمع آذان الجمعة، لا أستطيع الذهاب للصلاة، هذه أول جمعة بحياتي لا أصليها في الجامع.

مر يومان وأنا على هذه الحالة، لم أغادر السرير سوى لشرب الماء أو للذهاب للحمام.

***

تعافيت قليلاً يوم الأحد، ذهبت للكلية للحاق ما فاتني، علمت أن يوم الخميس امتحان مادة الفيزياء، لم أذاكرها إلا قليلاً.

أقضي طيلة اليوم بالجامعة في المكتبة المركزية، لا أحضر أي محاضرات؛ حتى أستطيع مذاكرة المنهج جيداً، أعود ليلاً على موعد النوم، أحاول ألا أفكر بذلك البكاء المنبعث أسفل السرير..

اتصلت بي أمي لتطمئن عليّ.

_كريم، كيف حالك يا حبيبي ؟

_ بخير يا أمي، ادعِ لي، عندي امتحان يوم الخميس.

_ ربنا يوفقك، وتحقق كل ما تحلم به.

_ آمين يا أمي، أنا في حاجة لدعائك.

_ لُبنى جاءها عريس، البنت مقصوفة الرقبة كانت طائرة من الفرحة.

أُصبت بالخرس، شعرت أن الأرض تميد بي، وقدمي لا تقوى على حملي..لقد عاد المرض مجدداً.

_كريم! أين أنت يا حبيبي ؟!

_هنا يا أمي..قولي لها ألف مبروك. إن شاء الله أحضر الفرح.

_الفرح سيكون بعد امتحاناتها بالثانوية العامة، خالتك قالت: البنات ليس لها غير الزواج، فلتكمل تعليمها في بيت زوجها، زواج البنت سُترة.

جلست على السرير أبكي، حاولت أن أُظهر القوة لنفسي، لكن قواي خانتني، وعلى بعد مترٍ واحدٍ رأيتها، إنها نفس الفتاة الصغيرة، عيناها صافية حزينة، كانت تنظر إليَّ، وكأنها تستنجد بي وتستغيث، حزنها لامس حزني، ووجعها اختلط بوجعي.

اختفت في لحظات، بقيت ساكناً في مكاني لمدة ساعة، كأني عود خشب جاف، لابد أن أدع كل هذا جانباً، على الأقل الآن..تبقت لي محاضرة واحدة لم أذاكرها، ثم أقوم بالمراجعة السريعة.

مر الامتحان على خير، أردت أن أغير الروتين الذي أعيشه، ذهبت أنا وصديقي يوسف للسينما بشارع خشبة، وشاهدنا فيلماً أجنبياً، بعدها ذهبنا للعب تنس الطاولة.

حكيت له كل شيء عن البيت، بعد وصلة من الضحك، أشار عليّ بمغادرته فوراً، وخصوصاً لاقتراب امتحانات نصف العام..

_ اسكن معي حتى تجد سكناً آخر. أنت تعلم أني أستأجر غرفة بأبراج الزراعيين القريبة من الجامعة.

لم أستطع رفض عرضه؛ لابد أن أنتبه لهدفي الذي جئت لتحقيقه، وأنا بحاجة شديدة لعدم الجلوس وحدي في تلك الفترة.

جاء معي لمساعدتي في نقل حاجياتي، ما إن دلفنا من الباب الخارجي، حتى صاح وهو بالحديقة: تعيش أنت والعفاريت هنا؟ زجرته بيدي، مشيراً له بالتوقف، قلت له: سأجلب كتبي وبعض الملابس سريعاً.

لا أعلم ما الذي جعلني أوقفه قبل دخول البيت، هتف بداخلي ساعتها هاتف: للبيوت حرمتها.

شعر بالارتياح لعدم دخوله، قال لي مبتسماً: أسرع، ولا تثرثر كثيراً مع عفاريتك.

سعدت بتواجدي معه؛ فهو إنسان دمث الخُلق، أحب لهجته الصعيدية، وخصوصاً وهو يقرأ أشعار الشاعر الجميل أكرم عبد

السميع، كان طويلاً، عينه خضراء، شعره يميل للاصفرار، كنت أمازحه دائماً..

_ أنت متأكد أنك صعيدي ؟!..

ينام مبكراً، ويستيقظ مبكراً؛ ليذاكر، على عكسي تماماً، خفاشي النزعة، حيث لا أنشط إلا ليلاً، أُجبر نفسي على النوم في نفس مواعيد نومه، أظل مستيقظاً، ناظراً لسقف الغرفة في الظلام، متذكراً تلك العيون الجميلة التي كانت تُحيطني بالبيت، أتقلب يميناً ويساراً، أصحو رغماً عني باكراً بمجرد استيقاظه، أحاول أن أذاكر، لكن الصداع يبعث جنوده لاحتلال رأسي؛ فتضيع كل محاولاتي للتركيز.

آخذ منضدة وكرسي، وأجلس بالصالة؛ حتى أذاكر بحريتي، وبصوت عالٍ كما اعتدت، أشعر بأني في محطة القطار، تفتح الأبواب كل فترة قليلة، من يذهب للحمام، من يقوم بعمل الشاي، من ينزل خارج السكن، من يغني، من يتشاجر..

بحثت عن سكن آخر، لكن مع اقتراب امتحانات نصف العام، كان شيئاً مستحيلاً..

في النهاية حزمت أمري..سأعود للبيت.

رفض يوسف بشدة، لكن مع إصراري، ساعدني في حمل حقيبتي، وخرج معي؛ ليوصلني.

ذهبت لمنزل عم ياسين؛ لإعطائه الإيجار المتأخر، أول ما دخلت وجدت صورة معلقة في صالة المنزل، إنهم هم..الرجل، والمرأة، والفتاة. أنظر إلى الصورة بخوفٍ وحيرة شديدة.

_هذه صورة أخي الأستاذ عبد القادر - رحمه الله - وزوجته، وابنتهما نور..

نور كانت مثل الملاك، توضع على الجرح تطيبه.

أعود للبيت، الضوء خافتٌ، موسيقى ناعمة يتردد صداها في أذني، تضمد جراحي، وتشفي روحي المتعبة مصدرها غرفتي، أراها أمامي، ترتدي فستاناً وردياً بلا أكمام، شعرها كأنه أمواج بحر ثائر، ترقص، وتدور حول نفسها، كفراشة عرفت سر الجمال، فظلت تحلق وتلون كل البيتً بألوان الطيف.

اختفت فجأة بداخل الحائط المجاور لسريري، وكأنها تهدهد روحي المفزوعة.

فتحت الدولاب؛ لأضع ملابسي به، وجدته مليء بجيبات وبلوزات، على أحد الأرفف وجدت دمية على شكل بنت صغيرة، شعرها أخضر..تجلس بابتسامتها الساحرة وكأنها تشير إليّ، حاولت ملامستها، لكنها سرعان ما اختفت.

_هذه غرفة نور! وهذا دولاب ملابسها.

من بعد تلك الحادثة هدأت الأمور؛ حتى ظننت أن ما رأيته مجرد خيالات بعقلي أنا فقط؛ بسبب تغيير المكان، وقصة حبي الفاشلة التي كنت أعيشها.

انتهت امتحانات نصف العام، كنت راضياً عن ما حققته، مع الوضع في الاعتبار لتلك الأحداث التي مرت بي، ودعت صديقي يوسف، وذهبت مسرعاً للبيت؛ حتى آخذ حقيبتي وأسافر.

أجتزت الحديقة، وما أن دخلت البيت، حتى وجدته واقفاً أمامي، تحيطه نظرات الرعب، ملامح الغضب والخوف تملأ وجهه، يصرخ بشدة، ويحدق في الفراغ

_لا تقل لي يا ابن الزانية، أمي أشرف منك.

يضرب نفسه في الحائط، يتأوه متألماً. الدماء تغرق حوائط وأرضية الصالة، الوهن يغزوني، عيوني زائغة، دماءٌ على كل أجزاء جسدي، أشعر بخوفٍ شديد، أركض لأغسل وجهي ورأسي، لكني لا أجد شيئاً..بصعوبة أدخل غرفتي، لأجد نور واقفة أمام الحائط المجاور لسريري، تكتب بيدها اليسرى..

_أخاف من أبي بشدة، منذ عاد، وهو يتصرف بشكلٍ غريب، أمي أيضاً خائفة.

تمحو كل كلمة تكتبها بيدها اليمنى سريعاً.

_إنه ينظر لي نظرات مخيفة.

حملت حقيبتي، وخرجت مسرعاً متجهاً لمحطة القطار.

أثناء سيري بالطريق لركوب أي سيارة أجرة تقلني إلى محطة القطار، رأيت عم عبد التواب الذي يعمل في فرن العيش، سلمت عليه، وأخبرته بأني مسافر لأهلي، دعا لي بالوصول بالسلامة، سألته عن الأستاذ عبد القادر..

_هل كان الأستاذ عبد القادر معتاداً على السفر؟

_ لا، هو لم يسافر سوى مرة واحدة قبل زواجه كانت للإمارات، وعاد فبنى البيت الذي تسكن به الآن.

ملأتني الحيرة أكثر، هو لم يسافر سوى مرةً واحدةً، وكانت قبل زواجه، وقبل مولد نور..عاد من أين إذاً ؟!

_ الأستاذ عبد القادر- الله يرحمه - كان رجلاً سُكرة، لكن بعيد عنك كان مخه طاقق بالسياسة، مازلت أتذكر يوم اعتقاله، الأمن حاصر البيت، أخرجوه ببيجامة نومه، ظل في المعتقل لمدة سنة، بعد خروجه اعتزل كل الدنيا، وبقى في بيته لا يخرج منه، وانقطعت عنا أخباره حتى يوم الحادث.

ركبت قطاراً عادياً؛ حتى أوفر بعض النقود للأجازة، البرد قارص، ومعظم شبابيك القطار بلا زجاج، جلست بجوار فتاة وأبيها، وشاب في الأربعينيات، النافذة المجاورة لنا مفتوحة على القطب الشمالي.

إنها نفس العيون!..عيون نور، أحاول عدم الالتفات إليها؛ حتى لا تقع عيني بعينيها، لكنها كالسحر، أحدق بوجهها الذي يشبه زهرة قطفت من الجنة لم يجف الندى من عليها بعد.

قام الشاب متأثراً بالبرد، وجلس بجوار أصدقائه وشاركهم الغطاء.

حكي لي الرجل..

_ وُلدتُ بسوهاج، لكنني تركتها منذ عشرين عاماً من أجل لقمة العيش، استقريت بالمنصورة، تزوجت وأنجبت ابنتي الوحيدة هبة، هي كل حياتي.

_أنا طالب بكلية الهندسة، أول مرة آتي للصعيد هذا العام.

_ أنا أيضا منذ تركت سوهاج لم أعد إلا هذا العام..آتي لابنتي كل شهر بملابسها، ومصاريفها، أنا أخاف عليها جداً.

_ ربنا يحفظها، ويبعد عنها كل شر.

وهي صامتة تحمل ابتسامة لامعة؛ فإن تكلمت خرجت منها عصافير مغردة تنشر الفرحة في من حولها.

_أنت حقاً في كلية هندسة! كانت حُلم حياتي، مجموعي لم يؤهلني سوى لكلية العلوم.

_كلية العلوم كلية محترمة ولها مستقبل كبير.

_أنت لا تعيش في مصر! مستقبلها ليس هنا، بل بالخارج خلف الحدود.

## (٣)

وصلت لبيتنا، أغمضت عيني؛ لأرسم صورته مرة أخرى بداخلي، لأعود لأيام طفولتي، لركضي بكل أنحائه، لمشاكستي لأمي، واختبائي منها محاولاً إخافتها، ليوم وفاة أبي، كأنه بالأمس، كنت بالصف الخامس الابتدائي، رجعت من المدرسة لأجد كل الجدران تبكي، وأمي مكومة بجوار السرير تنتحب، عندما رأتني أخذتني في حضنها، دموعها بللت ملابسي، رأيت أبي ممداً على السرير، حاولت أن أشد شاربه كما كنت أفعل، لكنه لا يبتسم.

استقبلتني أمي بأحضانها وقبلاتها، كنت ماءً فقد مجراه، أتخبط، لا أعرف لي طريقاً؛ حتى عدت إلى مساري الطبيعي؛ لأتدفق، وأعطي الدنيا الحياة، كانت أمي نبتة جافة، وما إن أصبحتُ بين ذراعيها حتى أينعت وتفتحت أزهارها من جديد.

أعدّت لي وليمةً كبيرةً؛ لتعوضني تلك الأيام العجاف التي قضيتها بعيداً عنها..

_ كُل يا حبيبي، أصبحت نحيفاً جداً.

ضحكت، وقلت لها: لا تخافي عليّ يا أمي؛ أنا هكذا دائماً.

كنت مُنهك القوى من السفر، أخذت حماماً ساخناً، وخرجت لرؤية صديقي هيثم، ذهبنا لنتمشى، نزلنا لميدان التحرير، وسرنا على

الكورنيش..لا أدري لما ذهبت لأسيوط، قد يكون النيل أعادني إلى هناك..أو تلك النظرات التي تُحيطني في كل مكان: نظرات نور، وهبة.

عدت للبيت في الثانية صباحاً، ألقيت بجسدي على السرير، لكني لم أستطع النوم، كم أشتاقك يا لُبنى، أود رؤيتها فقط، لن أعاتبها، لن أثور عليها، يكفيني رؤيتها.

حاولت كتم مشاعري كل تلك الفترة الماضية، لم أعترف لنفسي حتى بأنها مازالت تعيش بداخلي، وبأن الصدمة قوية جداً.

معلقٌ في الهواءِ مصلوبٌ، تأكل رأسي الطيور فلا أستطيع إبعادها، أحمل الحزن بين طيات ملابسي سابحاً في نهر الوجع، تفاحتي التي أكلتها مسمومة محقونة بالخيال.

الضباب كثيفٌ من حولي، أوشك ألا أعرف الصواب من الخطأ، الحب من الكره، وأضيع بين أنهار الأحزان المالحة، مقيداً، منتظراً صقر الخلاص، منتظراً أن تنبت أشجار الحب من حولي؛ لأتعلق بأغصانها، وآكل من ثمارها. فيجيبني صوتٌ يزلزل كياني:

لا تنتظر يا صديقي شيئاً؛ فبعد قليل ستهاجمك وحوش الليل الضارية، ستظهر لك جنية الليل؛ لتوهمك بأنها ستنقذك، وما إن تقترب منها؛ حتى تُغرقك، وتأكل قلبك.

أشعر بها بجواري، أشعر بأنفاسها المتلاحقة، أشعر بقبلاتها على جبيني، وكأنها تطلب مني المغفرة والصفح.

استيقظت ،وأنا أردد أسمها همساً: لُبنى. لم أجد سوى الظلام يؤنس وحدتي.

غرقت في نومٍ عميق. لم أشعر بنفسي إلا في الثانية عشرة ظهراً، جسدي كقطعة زجاج مفتتة. اتصلت بالدكتور رؤوف صاحب الصيدلية التي أعمل بها في الأجازات؛ لأخبره بأني جاهزٌ للعمل من الغد.

لم أستطع أن أنسى لُبنى، وما حدث، على كل حال هي مدينة لي بتوضيح؛ زرعت بداخل قلبي أجمل زهرة ربيع، وما إن أينعت وأزهرت، حتى قامت بحرقها.

أعود كل يوم من الصيدلية في السابعة مساءً، بعد أن يقتلني التعب من الوقوف طوال النهار على قدمي. أستيقظ يوم الجمعة مبكراً، يمر عليّ معتز ومحمود ونذهب للعب كرة القدم؛ لنعيد الأيام الماضية، نعود على صلاة الجمعة، وبعدها نجلس بالكافيتريا الموجودة على الناصية حتى صلاة المغرب. نلعب دمينو، وشطرنج.

معتز زميلي في الصيدلية، طالب في كلية الطب، الفرقة الثانية، شعره أسود ناعم، عيونه عسلية، يغني بصوته الجميل أثناء ساعات العمل.

.-أنت يا بني خسارة في البلد.

_الظاهر يا كريم إن بلدنا خسارة فيها أشياء كثيرة، أو نحن خسارتها الوحيدة.

لم أحب نبرته الحزينة اليائسة.

رأيت لُبنى تمر من أمام الصيدلية. لمح نظراتي المتلهفة إليها. قلت له: سأعود بعد نصف ساعة، يا مطرب الطب والصيدلة.

لكزني في جانبي مبتسماً ،وهو يقول لي: لا تتأخر يا شهيد العشق الهندسي.

ناديت عليها: لُبنى!

وقفتْ مرتبكةً من المفاجأة..

_كريم! الحمد لله على سلامتك.

نظرت في عينها مباشرة، فأشاحت بناظريها بعيداً. بطريقة عفوية تُريني الذهب الذي يملأ ذراعيها، والقلادة التي على شكل القلب التي تُزين جيدها.

_ماذا حدث يا لُبنى ؟!

_ لا شيء يا كريم، سنظل أخوة دائماً.

_ووعدنا!

_لتكن واقعياً، هل سأنتظرك على الأقل خمس سنوات؟! أنا لي الحق في التفكير في الاستقرار والزواج.

_وما كان بيننا ؟!

_ كريم..الزواج هو حُلم كل فتاة.

تكرهني الأرض، أشعر بأن الهواء يضن عليّ؛ حتى لا أتنفسه، أتركها وأرحل. نور الشمس لا يصل إليّ، أتخبط في المارة، لا أسمع أصواتهم، لا أراهم إلا وهم يحركون شفاههم، أصل للبيت، أغلق على نفسي غرفتي، عيوني متحجرة، تتجمد بداخلي كل المشاعر؛ فتصبح صحراءً من الثلوج والصقيع، أحدق في كل زاوية، أشعر بالثورة والغضب..أنفجر في البكاء مرةً واحدةً، أبكي وكأني لم أبكي من قبل..أطول ليلة تمر عليّ.

مرت الأجازة سريعاً، فرحت لعودتي للجامعة، اشتقت لتلك العيون التي لم تؤذيني يوماً، بل كانت كملاكي الحارس..

عرض عليّ يوسف المكوث معي في البيت، في الأسبوع الأول من الدراسة..

_مازلنا في أول الدراسة، ولن نضيع وقتاً، أريد أن أعرف ما يحدث معك في البيت، وقصة الفتاة التي تظهر لك، الفضول يقتلني.

وقف يوسف يحدق في صورة نور، المرسومة بالرصاص على الجدران، ينصت وكأنه يسمع شيئاً:

_كريم! أتسمع ذلك الغناء ؟!

_أي غناء! أنا لا أسمع شيئاً .

_الكلمات غير واضحة، لكني أميز لحناً جميلاً، وصوتاً طفولياً.

أخذنا نتكلم طيلة الليل، أخبرني عن بتول، تلك الفتاة التي يحبها عن طريق شبكة الإنترنت.

_هل هي جميلة ؟!...

_ صوتها كصوت جمال الطبيعة !...

_ألم ترها من قبل ؟!...

_هي من البحرين، لم أشاهد حتى صورتها؛ لكني عندما أسمع صوتها، أتوه في عالمٍ من السحر والجمال.

_وهل هذا حب؟! لا تعرف عنها شيئاً، سوى ما قالته لك، لا تعرف حتى شكلها، قد لا تراها أبداً.

_الحب حب، وأنا لا أريد منها شيئاً- وهي أيضاً- غير تلك اللحظات التي نمضيها سوياً.

لم يوافق أن ينام في الغرفة الأخرى.

_ لن أنام بمفردي، سأنام هنا ولو على الأرض.

ضحكت وقلت له: يا جبان!

نام بحواري على السرير. قمت فزعاً على صوته وهو يصرخ.

_ماذا حدث ؟!

_أسمع صرخات تنبعث من كل مكان.

_لا أسمع شيئاً، غريبة!

وجهه ممتقع من الرعب، يشير في كل أرجاء الغرفة ويقول: انظر.

لا أرى شيئاً غير عادي، السكون يخيم على المكان.

_انظر يا كريم، تلك العيون التي تحدق بي بقسوة.

_اهدأ يا يوسف، لا شيء يدعو لكل هذا الفزع.

_أنا لن أستطيع النوم هكذا، لنثرثر حتى الصباح.

_كما تريد، أنا معك.

رأيت نوراً قوياً خارج البيت، وكأنه ضوء الشمس. فتحت النافذة لأجد الحديقة أمتلأت بالزهور. مستحيل! الحديقة كانت مجرد أرضاً بوراً.

نور وسط الزهور ترويها وتغني، غناؤها مجرد موسيقى فقط، ليس هناك أي كلمات.

لم ير يوسف شيئاً من كل هذا، لكن الرعب ملأه من نظراتي المليئة بالدهشة، علم أني أرى شيئاً، لكني لم أخبره: حتى لا يخاف، لم يسألني، وكأنه لا يريد أن يقحم نفسه في تلك الدائرة المرعبة.

اختفى الضوء تدريجياً، ليحل مكانه الظلام مرة أخرى، لكنها كانت لحظة الشروق، نور الشمس ظهر؛ ليصل ذلك الضوء بضوء النهار، أصبح للحديقة نهارين، نهار الليل الذي يمد الحديقة بالحياة، ويملأها بالزهور والورد ، ونهار الشمس الذي يأتي ليميتها ويجعلها قاحلة مجدداً.

_كريم! أنا لن أمكث هنا دقيقة أخرى، أنت مجنون لو بقيت هنا.

_لكني اعتدتُ على البيت، وما يحدث به.

_لا تكن مجنوناً، ابحث عن أي سكن.

_لا تكن سخيفاً يا يوسف، فلتكمل الأسبوع..لا تكن جباناً.

_لكنني بالفعل جبان، لا أريد أن أفقد عقلي.

مع إلحاحي قرر المكوث معي حتى نهاية الأسبوع، طيلة الليل يجلس في مقهى الإنترنت، ويعود في الصباح، وأنا ذاهب للجامعة.

_ يا بني، ما الذي تفعله بنفسك؟!

_ أنا لن أمكث هنا ليلاً.

أنظر إليه مبتسماً قائلاً: أتخاف من البيت، أم أنك تتكلم مع حبيبة القلب طيلة الليل؟!

_صوتُها حكاية يا كريم، لو تسمعها وهي تقول لي بأنها تفطر مربى.

ضحكت كثيراً، المربى من الأكلات المحرمة دولياً، لا نأكل غير الفول والطعمية، نراها فقط في المناسبات والأعياد القومية.

تركته في البيت؛ لينام، وذهبت مسرعاً؛ لألحق بالمحاضرة الأولى، ذهبت بعدها إلى كلية العلوم؛ لحضور معمل الكيمياء، رأيت هبة تقف بجوار المعمل، لم أصدق نفسي، سلمت عليها، أخبرتني بأنها ستنهي يومها الدراسي الساعة الثالثة عصراً، قلت لها بأني سأنتظرها. أحتاج وجودها في حياتي، إنسانة ذكية، جميلة، شيءٌ يجذبني إليها بقوة.

نتحدث كثيراً، تتسلل داخل عالمي دون أن أدري، كنجمةٍ في سماء الجمال تُزين حياتي، تحلق بأجنحتها النورانية حولي؛ فتمنحني راحةً وآمان.

لم أُشف بعد من تجربتي السابقة، شعورٌ قويٌ يجتاحني هي ليست كلُبنى، ولكن كيف أثق في مشاعري بعدما حدث ؟

أتركها على وعد باللقاء مرة أخرى، أحلق عالياً في سماء الحب من جديدٍ، كعصفورٍ أخطأ في اختيار الشجرة التي يقف عليها ليبني عشه، فاحترقت الأغصان من تحت قدميه، يحاول الهرب من نيرانها، ليجد شجرةً مورقةً بزهورِ الرقة والعذوبة، فيخطو إليها متوجساً.

(٤)

عدت للبيت، لم أجد يوسف، توقعت أن يكون في مقهى الإنترنت يحادث بتول، ذهبت إليه، وجدته هناك كما توقعت، أشار لي بالجلوس بجواره، كان يُكلمها صوتياً، تعابيرِ وجهه توحي بسعادةٍ كبيرة.

_بتول..أريد أن أراكِ ؟

_كيف ؟!!

ضحك كثيراً، ثم قال لها: تسأليني عن كيفية رؤيتك؟ بالتأكيد سأراكِ بعيني، سأشرحها لكِ كما درسناها في الفيزياء، العين بها عدسة، في الماضي كان يوجد نظرية تقول أن هناك شعاع يخرج من العين على الشيء المرئي، فيجسمه بداخل العين، وهكذا نستطيع أن نرى..لكنّ هذه النظرية اكتُشِف أنها خاطئة، فالشعاع يخرج من الجسم المرئي، ويسقط بداخل العين.

كل الحكاية أني أريد أن يسقط شعاعك بداخل عيني.

سمعت ضحكتها ترن في أذني، وجه يوسف كبحيرة ماء، مزينة بالأسماك الملونة، وبأفراس البحر الباسمة.

_إن شاء الله يا يوسف، سأشتري كاميرا من أجلك.

قام معي، بصعوبة بالغة، وكأن جذوره تأبي أن تترك أرضها.

_يا يوسف، أنت تضر نفسك، عينك دامية من قلة النوم.

_أحبها يا كريم، أراها في كل شيء حولي، في السحاب، وفي النيل، وفي وجوه المارة، وعلى تراب الأرض.

قلت له باسماً: أتركها على تراب الأرض، وانتبه لمستقبلك قليلاً.

لكزني بيده في جانبي، وقال لي: أنا جائع جداً.

_هذا ليس وقت الأكل، نتيجة الفصل الأول ستظهر غداً.

_والله! سنذهب غداً للجامعة سوياً، لقد اشتقت للجامعة.

لم نستطع النوم هذه الليلة، شبح النتيجة يظهر لنا أكثر رعباً مما نراه في البيت، أشباح البيت ليست ضارة حتى الآن، لكن النتيجة هي مستقبلنا، وحياتنا القادمة.

تكلمنا كثيراً هذه الليلة، لا أذكر سوى ومضات من حديثنا..

بتول، لُبنى، هبة، نور والأستاذ عبد القادر، مرت حياتنا من أمامنا كقطارٍ لا يتوقف.

في الصباح ارتدينا ملابسنا سريعاً، وذهبنا للجامعة، النتيجة ستظهر في العاشرة صباحاً في المدرج، جاءت العاشرة، والحادية عشرة..ولم تظهر بعد، تمنيت أن تظهر ولتكن بأي صورة؛ حتى ينتهي هذا العذاب، كالملقى في النار ينتظر ساعة الذبح.

قال لي يوسف: تعالى يا كريم نشرب أي شيء في كافتيريا الكلية، لو ظهرت سنعرف.

_أنا أيضاً أريد أن أخرج من هذا الجو المتوتر.

ناديت على صديقنا محمد مصطفى، وقلت له: أنا في الكافتيريا لو ظهرت اتصل عليّ.

تضاءلت كل أحلامي فجأة، أحسست بخوفٍ شديد، أعصابي قطعة خشب تطوحها الأمواج الهادرة هنا وهناك. اتصلت بأمي: ادعِ لي يا أمي.

جاءني صوتها، كنور القمر في ظلمة الليل الحالك يهدهد أعصابي ويمنحني دفءاً، دعواتها أراحت وطمأنت قلبي.

على الساعة السابعة مساءً، وجدت محمد مصطفى يرن عليّ..أسرعت إلى المدرج، وجدت الدكتور محمود الشيمي أستاذ الهندسة الوصفية ينادي على النتيجة بصوتٍ عال.

_ما تلك الفضائح!

_لا يوجد أي فضائح، كل واحد لا يفكر إلا في حاله الآن.

رسبت في مادة الرياضيات، ونجح يوسف بتقدير جيد، أخفى مشاعرَ الفرح من أجلي، بل كان حزيناً.

_لا عليك يا كريم، مادة الرياضيات مادة ممتدة، تستطيع التعويض في الترم الثاني.

_والله، وقوع البلاء خيرٌ من انتظاره،

ألف مبروك يا يوسف، والله فرحان لك.

_ما حكاية هبة ؟!

_أعتقد أني لن أراها مجدداً.

_لماذا ؟!!

_لن أتحمل تجربة حب فاشلة مرة أخرى.

_ولماذا تحكم عليها بالفشل من البداية؟ لماذا لا تعطيها الفرصة؟!...

_قلبي الآن ليس مؤهلاً للحب.

_كريم..الدنيا لا تنتهي بتجربة حب فاشلة، ليس معنى أنك فشلت في تجربة بأن كل التجارب متشابهة، لا تعمم الحكم على النساء؛ لكل علاقة ظروفها الخاصة.

أمضى يوسف معي الليلة في البيت، لم يتركني في تلك الحالة..

في الصباح اتصلت بأمي..

_أمي، أفتقدك كثيراً.

_وأنت أيضا يا حبيبي، النتيجة ظهرت ؟

_الحمد لله يا أمي، نجحت.

_ألف مبروك يا حبيبي، عقبال البكالوريوس.

صوتها يخرج من الهاتف كمقطوعة موسيقية تتراقص أنغامها داخل قلبي، لكن قلبي يأبى الفرح ويغرق في دموعه. هذه أول مرة أكذب عليها، لكني لن أُشعرها بأني خذلتها.

في الصباح، استيقظ يوسف مبكراً، أعد لي الإفطار، وأيقظني..

_هيا يا بطل، الأكل جاهز.

_ما كل هذا التدليل؟! سأتعود على ذلك.

_قلت أؤدي دور الحاجّة، لعله يثمر فيك.

يوسف صديق رائع، لم يتركني إلا وقد أخرجني من حالتي، وضع الابتسامة على وجهي، وزينها بروح التفاؤل التي دبت في كل كياني.

عاد يوسف إلى سكنه بجوار الجامعة. أصبحت أكثر انضباطاً، لا أترك أي محاضرة أو تدريب عملي إلا أحضره، وأعود لأذاكر كل دروسي، حملت عبء الرياضيات مرة أخرى، وكأنه مسلسل لحياتي كلها.

لم يحدث أي شيء غريب بالبيت تلك الفترة، كأن الأشباح حزينة من أجلي. أبحث عن نور في كل زاوية بالبيت، أشتاق لرؤيتها..في الحديقة أو بجوار سريري ترسم، أشتاق لعيونها الحزينة، ولابتسامتها، لكنها ليست موجودة.

رأيت هبة أثناء حضوري معمل الكيمياء مرة أخرى، تسير بمفردها تحمل كتباً في يدها، لم ترني، أسرعت مبتعداً عنها، لن أضع نفسي في النيران مرة أخرى.

عندما خرجت من المعمل، وجدتها أمامي..

_كريم! أين أنت ولماذا لا ترد على التليفون ؟!

_آسف يا هبة، ظروف النتيجة.

_رأيتها معلقة في كليتكم، ولكن هذا لا يدعو للاكتئاب، أمامك فرصة التعويض في الترم الثاني.

_إن شاء الله، ماذا فعلتِ أنتِ ؟

_الحمد لله، جيد جداً.

شعرت بالفرح الشديد من أجلها، نسيت كل شيء ساعتها.. نسيت خوفي، وقلقي.

_ألف مبروك، ربنا يوفقك دائماً.

_تعالى نشرب نسكافيه على حسابي.

_ما دام على حسابك، لن أستطيع الرفض.

تتسلل إلى قلبي رغماً عني، مشاعري تتجه إلبها كنهر يُدفع دفعاً إلى مصبه.

يوسف لا أراه في الكلية، أفتقده بشدة، تليفونه دائماً مغلق. هل حدث له مكروه ؟! بعد انتهاء يومي الدراسي، ذهبت إليه بشقته، لكني لم أجده، قال لي صديقه إبراهيم : إنه بمقهى الإنترنت الموجود على ناصية الشارع، وجدته منكفئ على جهاز الكمبيوتر، كأنه طفله، يخشى عليه من الخطف.

_يوسف! أين أنت يا بُني ؟!

نظر لي، توردت وجنتيه خجلاً، قام مسرعاً، حضنني بشدة قائلاً: أفتقدك كثيراً يا صديقي.

_هذا واضح! يا عم أنت نسيتني خلاص، الله يكون في عونك.

_سامحني يا كريم، ثواني أستأذن من بتول، وآتي معك.

ذهبنا فأكلنا في مطعم المحمدي الموجود في منطقة شركة قلتة، يوسف كأنه لم يأكل منذ عام.

_أنت تضيع نفسك يا يوسف.

_لا تقلق عليّ، لقد وعدت بتول أن أنتبه لدراستي.

_عندنا امتحان أعمال سنة بعد أسبوع من الآن.

وجدته مندهشاً، قلت له: أحاول الاتصال بك منذ عرفت، لكن تليفونك مغلق دائماً.

_من أجلي، ذاكر هذه الفترة جيداً.

_حاضر يا كريم، أعدك بذلك.

لا يحضر كعادته في الفترة الأخيرة، لا أراه إلا في نهاية اليوم، يأتي للمطعم المركزي؛ ليتناول طعام الغذاء، أو يأخذه معه.

الجامعة تنظم رحلة نيلية بعد امتحان أعمال السنة هذا الأسبوع، حجزت لي، وليوسف، ولهبة.

مر الامتحان بخير، أخبرني يوسف بأنه أجاب بشكلٍ جيد.

_تعالى لتبيت عندي؛ لنذهب للرحلة صباحاً.

_سأجلب ملابسي فقط، قم بتحضير الساندويتشات، لم أنس طعامك منذ آخر مرة.

_أنت فاكرني الحاجّة!

ضحكنا من قلبينا، تركته وذهبت للبيت.

أشتاق إليكِ يا هبة هل ما أشعر به نحوها مجرد هروب من تجربتي السابقة، هل تسرعت؟! أخاف القادم، تحطمت سفينتي في وسط البحر، أتعلق بقاربها الملون، أجلس تعباً، تطوحني الأمواج يميناً ويساراً، أخاف من مصيري، هل سيخذلني القارب، أم سيوصلني لبرِّ الأمان؟!

وصلت البيت، يجتاحني شعورٌ بالحزن والخوف، لا أعرف سببه، أقف في منتصف الحديقة، كما عهدتها دائماً، مساحة خاوية من الحياة.

صوت حفر يخترق أذني، أحاول تحديد مصدره، يرتفع صوت غناء، كأنه يحاول إخفاء مصدر الصوت، أو إخفاء الصوت نفسه..

أُسرع الخطى نحو البيت، أشعر بوجود أحد يراقبني، عيوني زائغة، دموع الخوف والحزن تنهمر من عيني دون إرادتي.

تختبيء نور خلف الأريكة الموضوعة في الصالة، عيناها صافيتان، شعرها الأسود الناعم كليلٍ حزين، أقف قبالتها، أتجه إليها، قدمي تتجمد، لا أستطيع الحراك، تبكي وتأن، تتكوم على الأرض، طيرٌ مكسور الجناح، تعيش في الظلام والخوف.

أسرع لغرفتي، أختار ملابسي التي سأرتديها غداً بعناية، أحب أن تراني هبة في أبهى صورة،

عمّ السكون فجأة، اختفت أصوات الحفر، اختفى الغناء المرتفع، صمتت نور عن البكاء والأنين، رأيتُ الحديقة مليئة بالزهور والنباتات الخضراء، في الركن الغربي شجرة يوسفي مليئة بالثمار.

وصلت لسكن يوسف، مازالت روحي تعبة، حزينة، أخبرني بأن أصدقاءنا أتوا للعب كرة القدم، نزلنا الشارع ،وضعنا بعض الأحجار كمرمى، كنت أستمتع كثيراً، مرت ساعتان ونحن نلعب، ذَهَبَتْ الكرة بعيداً، ذهب عمر ليجلبها، ظهر أمامه رجل يرتدي جلباباً قديماً بيده جهاز لاسلكي، وأمسك به، وجدنا رجالاً على نفس الهيئة يحيطونا من كل جانب، جرى معظمنا، فكرت في الجري، لكنني توقفتُ؛ أمسكوا بواحدٍ منا ولا يجب تركه.

## (٥)

في لحظات اختفى الجميع، لم يتبق بجواري سوى يوسف، وعمر الذي أمسك به، تقدم رجل قال بأنه المخبر المسئول عن هذه المنطقة، وهناك من قام بالإبلاغ عن إزعاج هنا، تقدم له يوسف، وقال له: فلتترك عمر، هو لن يهرب، أريد أن أرى تحقيق شخصيتك.

شعر الرجل بأنه صفع على وجهه، قال ليوسف: ماذا تقول ؟!

قاموا بدفعنا نحوَ البناية القريبة منا، وجوهنا في مواجهة الحائط، وظهورنا إليهم، بدءوا في تفتيشنا، اقترب الرجل من يوسف، وضربه على ظهره، قائلاً : هل..مازلت تريد تحقيق الشخصية؟ تأوه من الألم..حينها صرخت فيهم : لماذا يتم تفتيشنا؟! هذا إجراء غير قانوني، التفتيش يحتاج لإذن من النيابة.

لم أشعر بنفسي، إلا وأنا أطير من مكاني لأستقر في منتصف الشارع، تركلني الأقدام من كل مكان، آه..الألم يكسرني لأجزاء صغيرة، لا أقوى على تجميعها، في لحظات وجدت يوسف، وعمر بجواري يواجهان نفس مصيري..

أحدهم يتحدث في جهاز اللاسلكي..

_ نعم، يا باشا، كله تمام،

_علموهم الأدب، ثم اتركوهم.

_حاضر يا باشا، كله حسب تعليماتك.

يصرخ الرجل فينا: يا أولاد الكلب، أين بقيتكم ؟!

أمسكت ساق أحدهم، ثم دفعتها بأقصى قوتي؛ ليسقط أرضاً، قمت سريعاً، ودفعت واحداً آخراً كان يركل يوسف بكل غيظ وتشفي، فسقط هو الآخر، قام يوسف مسرعاً، تخلص عمر من ركلاتهم، أمسكنا بعدد من الأحجار، صوبناها جيداً على رءوسهم، وركضنا نسابق الموت، الخوف يطاردنا كوحشٍ أسطوري يريد أن يبتلعنا..

أنفي ينزف بشدة، يوسف ضلوعه تكسرت، عمر يبكي بهلع.

_هم لن يتركونا.

_لا تخف يا عمر، هم لم يتحققوا من ملامح وجوهنا؛ الجو كان مظلماً.

قال يوسف: كنا نلعب بعيداً عن سكني، كيف سيصلوا إلينا ؟!

الفجر يؤذن، دخلنا مسرعين للمسجد، شعرنا بالأمان، اغتسلنا، وقمنا بالوضوء، رآنا الدكتور فواز، صاحب صيدلية الشفاء التي بالجوار.

_ماذا حدث لكم؟

_لا شيء، كنا نلعب كرة على الإسفلت، وسقطنا أكثر من مرة.

_أنتم الثلاثة، غريبة!

أخذنا للصيدلية، وقام بتضميد جروحنا، بذراع يوسف الأيمن جُرح نافذ، أعطاني قطنة لأكتم الدماء التي تنزف من أنفي، عمر بوجهه الكثير من الإصابات والتي وضع عليها لصق طبي.

شكرنا الدكتور فواز على اهتمامه، وما فعله معنا، رفض أن يأخذ أي نقود.

_أنتم مثل أولادي، فلتنتبهوا في المرات القادمة، لنلحق الصلاة قبل أن تفوتنا.

بعد خروجنا من المسجد تسللنا إلى سكن يوسف ، ارتدينا ملابسنا، وأخذنا متعلقاتنا للاستعداد للرحلة.

اتصلت بي هبة..

_كريم، أين أنت ؟

_في الطريق إلى المرسى.

_أنا وصلت حالاً، لا تتأخر.

_مسافة الطريق، سلام يا جميل.

صوتها يأتي ليمنحني الطمأنينة والسكينة، كعصفور جاء من الجنة؛ ليخلص روحي من خوفي وهلعي؛ ربت يوسف على كتفي قائلاً:

_هون عليك يا كريم.

_أشياءٌ كثيرة كُسِرَتْ بداخلي.

_كلنا كُسِرَتْ بداخلنا تلك الأشياء يا صديقي.

وصلنا المرسى، هبة تنظر للنيل، كأنها تشاهد شيئاً يتحرك في المياه، اقتربت منها قائلاً:

_ماذا تشاهدين ؟!

نظرت لي باسمة: أهلاً كريم، كيف حالك ؟!

_الحمد لله.

أرى بعينيها خوفاً كبيراً عليّ، وهي تتفحص ما حدث بوجهي..

_ماذا حدث ؟!

_لا شيء، لا تقلقي، كنا نلعب كرة وسقطتُ، إنه جرحٌ بسيط.

_الحمد لله.

_قولي لي، إلى ماذا كنتِ تنظرين في مياه النيل؟!

_إلى مصر.

أشارت لجزءٍ بالنهر..

_أنظر هنا بُنيت مصر حول النيل، لتُعلم العالم حضارة الاستقرار، هنا بُنيت المعابد، والأهرامات، هنا قام أحمس بتحرير البلاد، هنا أشرقت عقيدة أخناتون لعبادة إله واحد، خالق الكون والحياة، هنا قام بواسل مصر بتحرير سيناء من العدو المغتصب في السادس من أكتوبر.

لم أشعر بكلماتها، فما رأيته في ذلك الجزء العميق من النهر، هنا ذُبح طائر كرامتي، لم أستطع حمايته، وعندما حاولت إنقاذه في اللحظات الأخيرة، أصبحتُ مطارداً.

بريق عينيها يخفف عنّي كل شيء، ابتسامتها المتفائلة تُنبت بقلبي بستاناً للجمال، مملوءاً بأشجار الأمل العملاقة، يشقه نهرٌ من السعادة، تتقافز حول شاطئيه الأسماك الطيبة، في وسط البستان كوخاً للراحة والسكينة.

مَسَحَتْ دموعي بصوتها الدافئ، أحيت بردائها الوردي كل أحلامي الدفينة.

أحب لهفتها عليّ، وحنانها المغلف لكل تصرفاتها، ولكن ألم تكن لُبنى تفعل ما تفعله؟! أنبتت بداخل قلبي أجمل زهرة، وأخذت ترعاها، وما

إن كبرت وترعرعت؛ حتى اقتلعتها، وتركت قلبي ينزف من الأشواك، أين هي الآن؟ تركتني؛ لتتزوج.

اقترب يوسف، بجواره شابٌ أسمر، متوسط الطول، عيونه سوداء، شعره مجعد، ذو أنف صغير، وعيون ضيقه، وجهه باسمٌ.

_ أمجد ابن عمي، جاء ليودعني قبل أن يسافر إلى غانا.

_وهذا كريم الذي حكيت لك عنه، وهذا عمر، وهذه هبة..الوحيدة بيننا التي لا تنتمي لكلية الهندسة.

نظرت هبة باسمة: سعدنا بلقائك يا أمجد، هل أنت مهندس؟!

_نعم، تخرجت منذ أربعة أعوام.

_ولماذا تترك مصر، وتسافر؟!

_حتى أبدأ حياتي.

_ولماذا لا تبدأها هنا في مصر؟!

ضحك، وقال لها: مصر لا تنفع للبدايات، مصر جيدة للنهايات، أنا أحاول أن أبدأ هنا منذ أربعة أعوام، والنتيجة ! لم أتقدم خطوة للأمام.

_ووطنك ؟!

*_مياهٌ رقراقة،*

*وشجرة مثمرة،*

*ووجه حبيبتي..*

*كُلها أسماء متفرقة لوطني.*

*حاولت أن أخط اسم بلادي على جلدي،*

*فاستخدمت سكيناً صدئاً أدماني،*

*ولم يخط من اسم بلادي سوى حرفاً واحداً.*

_أنت شاعر؟!

_شاعر بالقهر، وحياتك.

نادي منظم الرحلة: على الجميع الصعود للعبّارة، سنتحرك في خلال ربع ساعة.

لم أقترب من النيل مثل هذه المرة، كأني جزءٌ منه، شعرت به يضمني ويحتويني، شعرت بكل كلمة قالتها هبة، هو الشاهد على كل تاريخنا، كأنه سجلٌ لكل ما حدث، ظهر أمامي الزعيم مصطفى كامل بشاربه المميز، فوق حائط مكتبه علم مصر القديم، بحثت في كل الأوطان عن حبيبة، فلم أجد سوى مصر؛ لتكون عشقي، ومحبوبتي.

العبّارة تشق مياه النيل، كآلة زمن تعبر كل عصور مصر القديمة حتى تصل لعصرها الحديث، ارتفع صوت "الدي جي" بصوت المطربة الجميلة شيرين " مشربتش من نيلها " ، لمحت أمجد يتزوي في ركنٍ بالعبّارة وحيداً، ينظر للنيل، وينصت لكلمات الأغنية..

*" مشربتش من نيلها...*

*طب جربت تغنيلها...*

*جربت في عزّ ما تحزن...*

*تمشي في شوارعها وتشكيلها...*

*ممشتش في ضواحيها...*

*طيب ما كبرتش فيها...*

عيونه زائغة، تتقلب في كل أرجاء السفينة، أشعر به يُمَزَق بخناجر حب الوطن، رغم كل ما يقوله، لا أصدق سوى عشقه لمصر.

*ولا ليك صورة على الرملة...*

*كانت على الشط في موانيها...*

*دور جواك تلاقاها...*

*هي الصحبة، وهي الأهل...*

*عشرة بلدي بتتآنس...*

*نسيانها على البال مش سهل...*

*يمكن ناسي لأنك فيها...*

*مش وحشاك ولا غبت عليها...*

تنهمر دموعه شلالاً يجرف مشاعر حبه لمصر: فتصنع نهراً عاشقاً لا ينضب، أراه يحرك شفتيه هامساً : ولا عمري أنسى.

*بس اللي مجرب وفارقها...*

*قال في الدنيا مفيش بعديها...*

*إن غبت بحنيلها...*

*أنسى الدنيا وأجيلها...*

*إن جيت أنسى...*

*تفكرني بمليون ذكرى لقلبي شايلها "*

يمسح دموعه ويرفع يديه عالياً، يغمض عينيه، يستنشق الهواء كأنها آخر المرات التي يستنشق فيها هواء مصر، يصرخ مع كلمات الأغنية..

_في الدنيا مفيش بعديها .

أسرع إليه، أحتضنه، وأخذه من يديه، ندخل حلقة الرقص، نرقص بجنون كأننا في زارٍ، نُلقي كل همومنا خلفنا، نتحرك بعشوائية يميناً، ويساراً.

يقترب مني يوسف، يشير إلى هبة التي تقف بعيداً نسبياً، تضحك مما نفعله، وتصفق بيديها.

_أنت يا بارد، البنت بمفردها، لو لم تذهب إليها، سأذهب أنا .

لكزته في جانبه، دفعني خارج حلقة الرقص قائلاً:

_عندما تتعلم الرقص، تستطيع العودة .

أقف أمامها، لا أنطق بأي شيء، الكلمات تضيع مني، جمالها يصمتني، عفويتها ونظراتها الحانية تجعلاني أود المكوث معها طيلة عمري، تقول وكأنها تقرأ ما بداخلي:

_ شيءٌ من الجنون مفيد، نحن بحاجة إليه، لكننا نخفيه بداخلنا، نكبح جماحه، ونسجنه داخل عادات متخلفة، ومنظر عام واهي، لما لا نطلق عنانه، لما لا نقول كل ما بداخلنا؟! أحاول دائماً أن أبدو كما بداخلي، ألقي كل الأقنعة التي يسجنني بداخلها مجتمع متخلف لأبعد الحدود، لتكن كالعصفور المحلق يا كريم، لا يمنعك مانع عن التحليق، أو القفز بين الأفرع والأغصان، لتكن كريم..بفطرتك، بقلبك

الجميل، ولتفك كل الخيوط المعقدة من حولك.. أتمناك بحرية وانطلاق..وجنون.

_أحسدك على تفاؤلك، وذلك البريق الذي لا يخفت من عينيك.

فجأة رأيت نور، تسير على شاطئ النيل، تتحرك أمامي كصورة ثابتة مع تحرك العبّارة. ماذا أتى بها هنا؟! إنها المرة الأولى التي أشاهدها بعيداً عن البيت، ارتعدت هذه المرة كثيراً. هل ستطاردني في كل مكان أذهب إليه ؟!

نظرت إلى هبة باسماً. قلت في نفسي، إنه ليس شيئاً من الجنون، إنه جنون رسمي.

تمرح نور وتلعب على جوانب النهر، تطارد الفراشات. أسمع ضحكاتها الطفولية من هنا، صورتها تنتقل عبر حقول القصب والفاصوليا، تمر بين وجوه الفلاحين، التي لوحتها الشمس.

انضم لنا أمجد، يقول بصوتٍ يائس.

_نحن مثل الناموس، نعيش، نموت، لا تفرق.

_ولكن الحل هو الهروب يا أمجد ؟!

_أي هروب؟! لقد مكثت هنا أربع سنوات، بحثت في كل مكان، عملت في هيئة السد العالي، ما آخذه لا يكفي إيجار السكن، أنا من سوهاج،

وهيئة السد العالي بأسوان. الصعيد يا هبة. مأساة حقيقية. لا توجد هنا أي مشاريع تنموية.

_ولماذا لم تذهب للعمل بالقاهرة ؟!..

_لنفترض أن فرص العمل بالقاهرة متاحة، وكله مثل الفل، في القاهرة سأصبح مغترباً، وغربة بغربة، يكون السفر خارج مصر، أو كما تسميه الهروب، أفضل بكثير.

شردت عن هبة، رغم محاولاتها لإدخالي المناقشة بينها وبين أمجد، عيني مثبتة على نور، ابتسامتها المشرقة، تجعلني أشعر بأني في عالمٍ من الجمال والرقة.

_نحن لا نقدر أن نفعل شيئاً حيال قدرنا.

_لكننا نصنع أقدارنا، الله جعل لكل شيء سبباً.

_لكن هناك من يُفسد علينا الأسباب التي نصنعها.

_أقدارنا مربوطة بأقدار أشخاص آخرين، فقد تحب فتاة، وتخبرها بحبك_هنا تكون صنعت قدرك، لكنك جعلته مربوطاً بقدرها_ لكنها قد ترفض هذا الحب، عندها تكون أنهت قدرك، لتبحث عن قدر مختلف، أو تسقط في آخر، وقد تحبك، لترسم قدرها، وتضع الخطوط الأساسية لقدرك، ثم تذهب لخطبتها، هنا يتدخل طرف

ثالث في صناعة القدر، إنهم الأهل. هكذا الحياة شبكة من الأقدار..التي أعطانا الله مفاتيحها، بالأسباب.

_وهل نختار من نحب؟!

_لا أعتقد أننا نحب دون إرادتنا، أنا لا أتحدث عن المعجزات، أو الأشياء التي فوق قدراتنا، فالله خالق الأسباب، فهو يستطيع صناعة القدر بلا مسببات، ولن يستطيع أحد التأثير على ما أراده، بالنظر لقوته المطلقة، أما نحن فقد أعطانا الله قوة محدودة، وأمرنا أن نؤثر بها..الشعوب هي الأخرى تصنع أقدارها، وتشارك فيه..

إذا الشعب يوماً أراد الحياة*********فلابد أن يستجيب القدر.

الإرادة هي التأثير، هي سنة الله في الأرض.

تتداخل داخلي كل الأصوات والصور.. صوت "الدي جي"، صوت أمجد وهبة، يوسف وهو يحادث بتول في التليفون، عمر واقف بمقدمة السفينة في مشهد قريب من تيتانيك، لكن بدون "كيت وينسلت". نور، وهي تتنقل أمامي..بين الأطفال الذي يلوحون لنا بأيديهم، وكأن سعادتها ومرحها ينتقلان إليهم.

نادى منظم الرحلة: لقد وصلنا أبا تيج، سنذهب لحديقة الحيوان، وسنعود عند الساعة الخامسة مساءً، لا يتأخر أحد.

تركتهم جميعاً، وأخذت أتتبع نور التي تهرول أمامي، كأنها تريدني أن أتبعها، نادى عليّ يوسف : أين تذهب ؟!

_لن أتأخر. ووجهت كلامي لهبة التي لم تخف ضيقها..

_لن أتأخر يا هبة، هو شيء ضروري، لا يمكن تأجيله. أرجوكِ فلتعذريني.

أتتبعها وسط الحقول. ألهث خلفها، بيوت مبنية من الطين، مكونة من طابقين على الأكثر، فوق السطوح بقايا لأعواد الذرة، أشعر بأني أعود لتاريخ مصر القديم، حولي الكثير من الأهالي، وجوه باسمة، تمتلئ طيبة. الرقعة الزراعية تختفي رويداً رويداً؛ لتطل عمارات مكونة من ثماني طوابق كحد أقصى، على جوانب الطريق الرئيسي محلات بقالة وملابس جاهزة والعديد من محلات خدمات التليفون المحمول، مازالت تجري أمامي، ظهر فجأة بستانٌ عملاقٌ محاطٌ بسياجٍ من حديد، حوله أشجار الفيكس المنسقة بشكل فني، وكأنها تحتضن السياج الحديدي..تتبعتها؛ حتى دخلتْ من بوابة حديدية ضخمة، وقفت مذهولاً وأنا أتطلع لليافطة العملاقة التي فوق البوابة الحديدة، مكتوب عليها.." حديقة النور" .

## (٦)

أدخل الحديقة دون إرادتي، كأني منومٌ مغناطيسياً، مازالت أمامي تجري في كل أرجاء الحديقة، تختفي خلف أشجار النخيل، تظهر فجأة من خلف نافورة المياه العملاقة التي تتوسط الحديقة، شعور بالحزن يجتاحني، تتساقط دموعي، تظهر خلفي، وهي تصيح بصوتٍ، وكأنه يخرج من داخلي، من أعمق أعماق روحي : أنا هنا.

أشعر بها تحادثني، توجه كلامها لي...

_لماذا تأخرت؟ لقد انتظرتك كثيراً.

أشير إليّ: هل تقصديني؟!

هي المرة الأولى التي أكون قريباً منها هكذا، أقترب منها أكثر، ألمح على رقبتها شيء يشبه الوحمة، على شكل تفاحة لونها بني، ابتسم لها، وأشير لرقبتي، تضحك بصوتٍ عالٍ، وتختفي من أمامي.

الكثير من الناس يفترشون المساحة الشاسعة المزروعة بالنجيل حول النافورة، نساء ترتدي السواد، ملابس رثة، نظرات مشتتة، رجال يرتدون جلابيب ممزقة وعمائم قذرة..نظرات اللهفة والحاجة تتشكل في أعينهم، لتشكل صحراءً من الفقر، صحراء بلا أي ينابيع مياه، أو شجرة تلوح في الأفق يستظلون بها من لهيب الشمس.

ارتفع صوت المؤذن لصلاة الظهر، من ذلك المسجد الكبير الموجود بالجانب الشرقي من الحديقة، له بابان..بابٌ من خارج الحديقة، وهو الباب الرئيسي، ويطل على الشارع العمومي، وباب آخر من داخل الحديقة؛ حتى يستطيع من بداخلها الدخول.

مسجد النور، تعلوه مئذنتان، واحدة أكبر من الأخرى، وقبة عملاقة بيضاوية الشكل خضراء، مزينة ببعض آيات القرآن الكريم مكتوبة بالخط الكوفي، ملحق بالمسجد مركز لتحفيظ القرآن، وتدريس بعض مناهج الدراسة بمراحل التعليم المختلفة كمجموعات تقوية.

في مواجهة المسجد، في الجانب الغربي للحديقة، مبنى ضخم مطلي باللون الأبيض، كل شيء به بنفس اللون، النوافذ، الأبواب، العاملين به، إنه مجمع النور الطبي.

دخلت المسجد، صليت الظهر، إمام المسجد رجل ناهز السبعين من عمره، يرتدي جلباباً أبيض، وعباءة رمادية، تعلو رأسه عمامة بيضاء، خصلات شعره المطلة من أسفلها لونها الشيب، ذو لحية كثيفة بلون السحاب، عندما صافحته بعد الصلاة، لا أعلم ما هذا الشعور بالراحة الذي أصابني، ابتسامته سفينة تحمل همومي إلى أرض السكينة والأمان، بريق عينيه شمسٌ ذهبية للحنان والحب.

خرج من المسجد، وتوجه إلى بناية صغيرة مواجهة لباب الحديقة، يتبعه الرجال والنساء، مكتوب على يافطة معلقة على شجرة نخيل

أمام البناية " استراحة النور" . غاب لفترة بداخلها، وخرج محملاً بأكياس كثيرة، لحوم مجمدة وخضروات وفاكهة، اصطف الرجال والنساء في صفين متوازيين، الجميع ينتظر دوره، يوزع عليهم الأكياس، ويعطي كل فرد مبلغ من المال.

على بعد خطوات مني، تظهر نور بضحكتها الطفولية ووجهها المشرق، تسرع من أمامي بين أشجار اليوسفي، فأسرع خلفها بلهفةٍ شديدة، تتوقف أمام لوحة من الرخام بين الأشجار، كل شيء من حولي يدور، أغمض عيني، وأسقطُ أرضاً، هل حقاً أقف أمام قبرهما؟! أشجار اليوسفي تبكيهما، يتحول لون الحشائش للأسود حداداً عليهما، أتمالك نفسي، وأقف مرة أخرى، لا أجدها، أقترب من اللوحة الرخامية، مكتوب عليها:

*"_نسألك الفاتحة لنور، وأمها سهام..*

***الحب والبراءة هما شمس الحياة وقمرها، هما جنة الله في الأرض، نور القلب هو مصباح الطريق، ونور ابنتي هي شعاعي الربّاني، هي ابتسامتي الوحيدة في هذا العالم."***

تتساقط من عيني أرواح شفافة تبكي، ما الذي يشدني إلى تلك الفتاة؟! عندما تغيب أبحث عنها، دموعي لا تنقطع، أسقط على ركبتيّ، أرفع يدي قارئاً لهما الفاتحة. فجأة أشعر بيد تربت على كتفي، أرتعد وأنظر خلفي لأرى صاحب اليد، إنه العجوز، يبتسم بعذوبة، بوجهه

مصر بكل طيبتها، بكل أصالتها، يمسك بيدي فأشعر أنه النيل يعيد لصحراء نفسي خضرتها.

_بارك الله فيك يا بُني، سهام ونور كانتا كل حياتي، نور حفيدتي القمرة التي تمنح السعادة لكل من يراها.

هدأت قليلاً، بادلته الابتسام، وصافحته، أخبرته بأني من القاهرة، وأدرس الهندسة بجامعة أسيوط، جئت في رحلة نيلية، وتركت المجموعة حتى أتجول على حريتي، لفت نظري الحديقة وشاهد القبر.

لم يتمالك نفسه، فيضانٌ من الدموع بلا سد يوقفه، دققت النظر بعينيه إنهما نفس عيون نور، كأنها أخذتها منه، من هذا الرجل؟! كأنه بطل من أبطال ألف ليلة وليلة، ذهبت معه إلى الاستراحة، جلسنا أمامها، بين الزهور والأشجار التي تمنح الروح السكينة والراحة.

_كانت نور تحب أشجار اليوسفي وثمارها، كانت اسماً على مسمى، المعنى الصافي للنور، يكفي أن تنظر بعينيها حتى تهدأ، وإن كنت في أشد درجات الغضب والخوف.

_رحمها الله، المكان هنا جميل جداً، هل أقمت تلك الحديقة والمسجد بجوار قبريهما صدقة على روحيهما؟

نظر لي مندهشاً، وابتسم قائلاً:

_هذا الشاهد ليس قبريهما يا ولدي، هو مجرد نُصب تذكاري، سهام ونور فُقدا ولم يتم العثور عليهما.

_ وما أدراك أنهما ماتا؟!..

_ قلبي يا ولدي، أشعر أنهما فارقا عالمنا، لم يعودا به.

تجولنا في كل أرجاء الحديقة، أشعر بداخلها بأني في عالمٍ آخر، عالم مليء بالخير والفضيلة. أشجار اليوسفي تنتشر في كل مكان، أشجار المانجو الحارس الأمين للفقراء والمساكين، يقف في الوسط الحاكم العجوز، أبٌ لكل من بالحديقة شجر وبشر.

هاتفي النقال يرن، إنه يوسف.

_أين أنت يا كريم، هل هذه الرحلة التي خرجنا بها سوياً، هبة ما ذنبها ؟! هي لا تعرف أحد فينا، حاولنا أن نخفف عنها الموقف، لكن التبرم والضيق يظهران عليها.

_ آسف يا يوسف، هناك أشياء لا يمكن تركها الآن، ساعة بالكثير وسأكون معكم.

انتابني الحزن من أجل هبة، وذلك الموقف السخيف الذي وضعتها فيه. هبة مثل نور، قطعة ضوء تمنحك السكينة والسعادة بمجرد النظر إليها.

_ سهام كانت تعمل صحفية في جريدة صوت أسيوط، كانت تؤمن بعملها، أتذكرها وهي طفلة صغيرة، بريق الحُلم يملأ عينيها، أسمع كلماتها الحالمة بمستقبل جميل، أريد يا أبي أن أجعل مصر بستاناً كبيراً مليئاً بالزهور.

دموعه تغرق وجهه، ينظر للشمس ويغمض عينيه ويكمل..

_أراها طفلة تحبو للوصول إليّ، تكبر أمامي، أراها مراهقةً شغوفةً بالقراءة، تحتفظ بقصاصات المقالات التي تعجبها، راسمةً مستقبلها وحلمها. أراها يوم ظهور نتيجة التنسيق للكليات، تطير وتحلق فَرِحَةً، أبي لقد تأهلت لكلية الإعلام، تضمني، كنت أنا ابنها ساعتها، عدتُ طفلاً بين يديها. كبرتْ وتزوجتْ، شعرتُ بوحشة كبيرة لفراقها، أنجبتْ نور، كنت أرى بها طفولة أمها، شعرت بأني عدت للوراء عشرات السنوات، تشد لحيتي قائلة: أنت شعرك ينبت بوجهك يا جدي.

العصر أذن، قمنا لنصلي، أخبرته بأني سأذهب بعد الصلاة؛ فلقد تأخرت على أصدقائي.

_ بارك الله بك يا بُني، سعدت بالتعرف عليك.

_ أنا الأكثر سعادة، ستظهر الحقائق يوماً ما، وسيطمئن قلبك.

تركت الحديقة، وتركت قلبي معها، شعرت بأنها مركز كوني، ونقطة جماله، الشمس غير الشمس، والنسمات غير النسمات، والبشر غير البشر.

اتصلت بهبة: لأطيب خاطرها:

_أنا أسف، غصب عني، أين أنتم الآن؟

شعرت بالضيق في صوتها، وهي تنادي عليّ بلهفة:

_كريم، كريم!! أين أنت، وماذا تفعل عندك؟!

_ من أجل خاطري، لا تتضايقي مني، سأحكي للكِ كل شيء في وقته.

هدأت قليلاً، شعرت بحنان جارف في صوتها، من تلك الفتاة التي تسكن شمس الدفء بصوتها، ظهرت لي لتنتشل مركبي المحطم من وسط الموج العالي والعواصف الغاضبة، روحي تؤخذ إليها، أحاول أن أبتعد، قلبي جسم يسقط إلى أرضها، لا يستطيع الفرار لأرض اللاجاذبية، قلبي تفاحة نيوتن لا أستطيع إلا النظر إليه وهو يسقط.

_نحن الآن بحديقة الحيوانات، سنغادر بعد قليل.

_سآتي حالاً يا هبة.

أعصابي زلزالٌ يحطم روحي، أبكي بشدة، ألمح نور تلوح لي من بعيد مبتسمة، تُلقي لي بالقبلات في الهواء، أمسح دموعي، وأبتسم لها، ألقي لها بقبلة حانية في الهواء.

وصلت لحديقة الحيوانات، وجدتهم يطوفون المكان، يظهر على وجوههم الضجر والملل، حديقة صغيرة، تكاد تكون خالية من الحيوانات، سوى عدد قليل من القرود والبط والإوز، وطاووس واحد.

قلت لهم مداعباً: هل هذه حديقة الحيوانات التي صَدَّعَتموني بها ؟!

قال يوسف وهو يضحك بشدة: ألا يعجبك الفراغ الموجود بالأقفاص؟! إنه نوع نادر من الحيوانات لا يوجد إلا هنا.

اقتربت من هبة، همست لها بابتسامة حزينة: أنا آسف، ما كان يجب أن أتركك، سأحكي لكِ كل شيء ولكن ليس الآن.

أعطيتها وردة حمراء قطفتها من حديقة النور عند مغادرتي، ابتسمت ابتسامة أضاءت الكون، وقالت: شكراً يا كريم، لكن لا تفعل ذلك مرة أخرى.

عدنا للعبّارة، الظلام يغطي المكان حولنا، الحركة قلت عن الصباح، الجميع متعبون، يومٌ شاقٌ من الحركة والسير، أقف بجوار هبة صامتاً، أشعر بأننا نقول كلاماً كثيراً، حمام قلبينا الزاجل يتنقل عبر

أجسادنا، يخبرنا بأن روحينا تاهتا منذ آلاف السنين، وها قد التقيا من جديد، أنظر إليها مبتسماً فأجدها مبتسمة، وجهها ماءٌ صافٍ رقراق.

نعم أحبها، نبتة الحب كبرت وشبت، أعترف لنفسي بأن حبها تغلغل بروحي، صار بئراً يغذي شراييني، أريدها معي نزرع أرض مستقبلنا بنباتات الحب والخير، ونبعد عنها الطفيليات والعوالق.

الصمت يخيم على المكان، صمتٌ مريب، سمعت فجأة ضحكات صغيرة صادرة من كل مكان بالنيل، التفت يميناً ويساراً محاولاً معرفة مصدر الصوت بالتحديد.

_هل تسمعي تلك الأصوات؟!

_أي أصوات يا كريم؟! أنا لا أسمع شيئاً.

تظهر في السماء أسهم نورانية، تتحرك في كل مكان، تشق الظلام وترديه صريعاً، أصوات الضحكات تزداد، أسمعها داخلي، نظراتي مشتتة، ترحل خلف كل سهم، وتوقظها الضحكات.

_كريم! ماذا يحدث؟!

أمسكت بيدها: أبقي بجواري دائماً.

نظرت لي، وهي تبكي: أنا بجوارك دائماً.

ماء النيل يكتسي بالعشب، أشجار اليوسفي تملأ المكان، العبّارة تسير، توشك أن تصطدم بها، أصرخ، فتنفذ من خلالها. سهام تركض خلف نور، يضحكان، نور تنظر خلفها وتقول لها: لن تلحقي بي.

_هبة، أنا أحبك.

أمسك يدها بشدة:

_أنا لست مثالياً، أمتلىء بجراحٍ كثيرة، قد لا أستطيع أن أمنحك السعادة، لكن إحساسي أصبح جارفاً، حاولت أن أخفيه بداخلي، لكنه طوفان يجتاحني، أنا أحبك، سعادتي أن أكون بجوارك.

أرخت رأسها على كتفي: أنا أحبك يا كريم. دع عنك آلامك، سنعبر سوياً كل الصعاب.

صوت سهام يخترق أذني، وقد لحقت بنور: أمسكتُ بكِ.

أرى شيئاً يظهر في السماء، إنها كلمات تُكتب، تظهر وتختفي:

*سهام النور تهدم ظلام الأنفس.*

*تقتل وحوش الليل.*

*تنشر الحب والخير في كل مكان.*

## (٧)

أشعر بأن العالم يتسع حتى اللاحدود، تُشرق عليّ هبة؛ فتضيء وجهي، تزرع به أزهار السعادة ونباتات الجمال.

_أحبكِ، أحبكِ، أحبكِ.

_أنا أموت فيك.

وصلنا إلى أسيوط، ودّعنا هبة عند المدينة الجامعية، قلبي ذهب معها، يصحبها في حياتها، الفرحة تملأ قلبي، شعرت بأني أتذوق الحب لأول مرة، هل كنت أحب لُبنى؟! شربت ماء حبها ليختلط بشراييني ودمائي.

ينظر لي يوسف نظرات باسمة: أنت يا عم رميو، أين سنبيت هذه الليلة؟!

_ هه!! ماذا تعني؟

_نسيت ما حدث قبل أن نذهب الرحلة؟! قد يكونوا توصلوا لسكننا جميعاً.

_فلنبيت هذه الليلة عندي.

_عندك! السجن أرحم من منزلك المليء بالعفاريت.

_العفاريت التي تتحدث عنها لم تؤذيني مطلقاً.

وصلنا البيت، التعب رداءٌ يُكسينا، نتحرك ببطء كأهداف معادة في طريقها للمرمى، أشعر بالطمأنينة والراحة، البيت ملاذي الأمن، عندما أبتعد عنه أشعر بالحنين والشوق.

حكي يوسف لأمجد ما حدث لنا، يصعد الحزن على أغصان وجهه، يمنع طيوره من التغريد.

_البلد ليست بلدنا، سأسافر ولن أعود.

قلت له: ماذا تقول يا أمجد؟! مهما حدث فمصر بلدنا، الحكومة ليست مصر يا صديقي.

_لكننا لا نحتك بمصر، نحن نحتك بالحكومة.

كان حُلم حياتي أن أصبح مهندساً، حصلتُ على شهادة الثانوية بمجموع كبير، الفرحة بحرٌ كبير يفيض، ويحتضن كل من حولي. عانيت كثيراً بالكلية، أذاكر ليل نهار، حرمت نفسي من الترفية، من أجل حلمي، من أجل أن أُريح أبي وأمي، وتخرجت بتقدير جيد جداً، سافرت في بحر الأحلام بقارب نوراني، سرعان ما تلاشى، لم أجد عملاً، وبعد بحث طويل وشاق عملت بشركة مقاولات، أعمل طوال اليوم بمرتب لا يكفيني، بدون تأمين اجتماعي، بعقد مؤقت، أرغموني أن أكتب استقالتي قبل أن أبدأ العمل، انتهى المشروع الذي كنت أعمل به

قاموا بتسريحي، لأبدأ من جديد رحلة البحث عن الحلم الضائع، أخبرني أحد الأصدقاء أن هيئة السد العالي تطلب مهندسين مدني، ذهبت مسرعاً، صُدِمت فلا يوجد تثبيت أيضاً. والراتب قليل جداً، العمل بعقد يجدد كل سنة، أفصل ثلاثة أيام؛ حتى لا يكون لي حق في التثبيت، ويتم التجديد مرة أخرى، عملت أربعة سنوات على أمل التثبيت، طلبت الهيئة من المهندسين العاملين بها عمل بحث عن معايير الجودة للموارد المائية ،وهي دراسة يمولها الاتحاد الأوربي، حيث يلقي الضوء على الاختلافات في المعايير بين الاتحاد الأوربي والدول النامية، صاحب البحث الفائز سيسافر لحضور ورش العمل المختلفة في النمسا وإيطاليا وفرنسا، عادت روحي المعنوية مجدداً، أخيراً وجدت مجالاً أستطيع تحقيق ذاتي فيه ، أنهيت البحث بعد عمل شاق، وفاز بحثي بالمركز الأول، كنت فرحاً كثيراً؛ فعلى الأقل سيتم تقديري معنوياً، أخبرني المدير بأن زميلاً لي سيسافر ببحثي بدلاً عني؛ فأنا غير مثبت وليس لي أي صفة رسمية أسافر بها، عدت للمنزل منهاراً، أحطم كل شيء أقابله، أوشك أن أغرق في بحار اليأس المظلمة، لكني دائماً أتشبث بقارب الأمل، أمسك بشعاع شمس العدل التي ستشرق عليّ يوماً ما. وعدونا بالتثبيت بعد الدورة التدريبية بالقاهرة، وانتظرنا، لكنهم ثبّتوا دفعة العام الجديد وتركونا نحن، ثارت ثائرتي، كيف يتم تثبيت الدفعات الجديدة، ويتركونا نحن، ذهبت لمكتب رئيس الهيئة، قال لي: هم أبناء العاملين؛ صرخت بوجهه: هم أبناء العاملين، لكننا أبناء الكلاب!

قدمت استقالتي، سأسافر لن أعود، سأجد بلداً تحن عليّ، بلداً ليست ظالمة.

وقف في وضع مسرحي ،وأخذ يلقي بعض أشعاره:

*"محبوس في تلك المدينة الكئيبة،*

*حصاني المجنح كُسر جناحه،*

*ردائي المامي لم يعد قادراً على التحليق،*

*تفاحتي المسحورة..لم تعد مسحورة،*

*الماء في الإناء تجمد،*

*لم يعد قادراً أن يشفي ظمئي،*

*خيالي الجامح..لم يعد جامحاً،*

*سقط من فوق التلة،*

*جاءني يبكي،*

*فلم أمسح دموعه،*

*لا تنتظريني..فلن آتي،*

*سأبقي هنا بين الشقوق،*

*بين الأخاديد الحزينة،*

*بين أمواج لا تعرف إلا القسوة،*

*هذا شرابي مسموم،*

*هذه الأرض تجذبني إليها،*

*وأنا مازلت صغيراً،*

*أبحث عنكِ،*

*لا تنتظريني فلن آتي،*

*لن أقدر أن أحطم قيدي،*

*لن أقدر أن أحطم قيدك،*

*فلتعطي طعامي للعجوز،*

*فطعام الحلم لا يشبع،*

*وشراب الأمل لم يعد يجدي."*

دموعه عاصفة تزلزل كياننا، تحرق الأرض الخضراء بقلوبنا، آخذه بين ذراعي، أربت على كتفه:

_هون عليك يا صديقي، سنغيرها، ستكون بأيدينا أجمل وطن.

يضحك أمجد قائلاً: أنت الآن تتحدث بلسان هبة. أظنها ألقت عليك تعويذة التغيير.

يهتز بحر وجهي، ويرسل نسمات باسمة: هبة أثرت فيّ كثيراً. كنت أظنها تعيش بعالم خيالي، ولا تضع قدمها على أرض الواقع، لكنني وجدتها تحاول أن تحلق بجناحي أحلامها لتأخذ الوطن لأرض النور والجمال.

_هي حقاً إنسانة رائعة، لا تفرط فيها.

اتصل يوسف بزملائه في الشقة يستطلع الأخبار، يظهر على وجهه الارتياح والطمأنينة، أسرع إليه:

_يوسف! ما هي الأخبار؟

_الجو هاديء، كل شيء على ما يرام.

_الحمد لله، ربنا ستر.

اتصلت بهبة..

_أشتاق إليكِ يا حياتي.

_أشتاق إليك أكثر يا نور عيني.

_أنا سعيد جداً لأنك معي.

_أنا سعيدة أكثر، أشعر بأني زهرة تحلق في الفضاء، حولي فراشات وزهور ملونة تطوف حولي، تنتشلني من خوفي، وتمنحني بريق الحب.

_صورتك لا تفارقني، أنتِ أجمل شيء حدث لي.

جذبني يوسف من ذراعي، وقال لي هامساً: ماذا بك يا كريم؟! الفرحة تقفز بوجهك، أحكي لي ماذا حدث.

_لا شيء يا يوسف.

_هل تخفي عني؟!

_أنا صارحت هبة بحبي، وهي أيضاً صارحتني بحبها.

_الله، الله. هذا هو الكلام.

أخذني بالحضن قائلاً: هبة كنزٌ، فلتحافظ عليها.

ذهبنا لتوديع أمجد بالمطار، لا أعلم ما سر تعلقي به، بكيت وأنا أحتضنه.

_سأفتقدك كثيراً يا أمجد. ربنا معك.

_وأنا والله سأفتقدكم جميعاً، في أول فرصة سأدخل على الإنترنت وأطمئنكم، أستودعكم الله.

ذهب يوسف وعمر لسكنهما ليرتاحا، كنت مشغولاً بشيءٍ آخر، دخلت "كافي نت"، أبحث عن جريدة صوت أسيوط، وجدت موقعها الإلكتروني، تنبهت بكل حواسي، كتبت اسم سهام عبد الرحيم في خانة البحث بالموقع، وجدت الاسم، لا توجد أي بيانات عنها، كل آثارها قد محيت بفعل فاعل، وجدت مقالاً قديماً شاركت بكتابته مع الصحفي محمد عمران، أسرعت بوضع اسمه بخانة البحث، يشغل منصب رئيس الصفحة الفنية، مقالاته كثيرة، يتحدث عن مشاكل الصعيد..عدم توفر فرص عمل، الصعيد طارد لأهله، المصانع التي تُلقي بمخلفاتها الكيميائية بالنيل تُسمم الناس، وتصيبهم بمختلف الأمراض. أسلوبه سلس، صاحب قضية، لكن ما الذي جعله يغير مساره؟!

تذكرت فجأة ما قاله الشيخ عبد الرحيم والد سهام بأنها منذ صغرها، وهي تحتفظ بالمقالات التي تعجبها، تذكرت صندوق الجرائد القديمة الموجود بالغرفة الرئيسية، أسرعت إليه، فتحته بشغفٍ، إنها كل أعداد جريدة " صوت أسيوط " القديمة، دائرة على شكل السحابة حول كل مقالاتها بقلمٍ فسفوري، كثيرٌ منها بكتابة مشتركة بينها وبين محمد عمران! إنه الخيط الوحيد الذي سيأخذ بيدي للحقيقة، لابد أن أقابله، أخذت عنوان الجريدة من موقعها الإلكتروني، سأذهب إليه سريعاً.

التعب وحش عملاق يفترسني، يضغط على أعصابي ويحبس أنفاسي، أعود للبيت، ألقي بجسدي على السرير، كأني ألقيه من قمة جبل، لأسبح في نهر الراحة، الغرفة تضيق عليّ وتتسع، أضواء خافتة تسقط على وجهي، أسمع صوت نور يأتي من الصالة:

*"يا فار يا بنى،*

*أوعى تاكلني،*

*كُلني بالليل،*

*الساعة اتنين،*

*رحت للقاضي قالّي مش فاضي،*

*رحت له تاني،*

*قصفص لى ودانى،*

*آه يا ودانى ، آه يا وداني"*

الأحداث تخترقني، تزلزل وجداني، لا أستطيع النوم، صوت دبيب أقدام يصل لأذني خافتاً، أقوم فأجد نور تقفز في الصالة، تمسك بكرة

تنس وتلقيها بوجهي، أحاول أن أتفاداها، لكنها تخترق جسدي، تصطدم بالحائط وتعود من خلالي ليدها مرة أخرى.

_صباح الخير يا نور.

لا تلتفت لي، تكمل غناءها، أتركها وأخرج أستنشق هواء الحديقة النقي، أراها تتسلق شجرة اليوسفي، تربط ثمرة طماطم بأحد الأغصان، تنظر لي وتقول: ماما! البرتقالة أثمرت حبة طماطم.

ذهبت صباحاً لجريدة صوت أسيوط، فيلا قديمة على الطراز الروماني، تتقدمها أعمدة مستديرة، ملحق بها حديقة كبيرة، منسقة تنسيقاً جميلاً، مليئة بالورود ذات الألوان الزاهية، الأرضية مكسوة بالرخام والجرانيت. وصلت لمكتب الأستاذ محمد عمران، مكتب بسيط به جهاز كمبيوتر، ومكتبة صغيرة بها الكثير من الكتب، يتحدث بأدب جم، لا يبدو على وجهه أي انفعالات.

_أنا متابع لحضرتك منذ فترة، مقالاتك النارية التي تسلط الضوء على جراح الوطن، متابعتك الصحفية لكل الأحداث التي تحدث بالصعيد، لماذا تركت تاريخك الصحفي وراءك ورضيت بإدارة الصفحة الفنية؟!

لمحت في عينيه نظرة حزن حاول إخفاءها بابتسامة وديعة: الفن هو لغة الروح، يسمو بها، ويجعلها تقاوم وتصمد، الفن ليس تغييراً للمسار، لكنه اكتمالاً له، فالفن يلون الأحجار، ويدهن السماء السوداء بألوان الطيف.

بادرته بسؤالي: ماذا تعرف عن سهام عبد الرحيم ؟

امتقع وجهه: سهام عبد الرحيم!! كانت تعمل معنا في الجرنال، لكني لم أعرفها على المستوى الشخصي، وقد تركت الجرنال منذ فترة كبيرة.

أخرجت من حقيبتي الأعداد الورقية القديمة للجريدة، وضعتها على مكتبه، وأشرت لاسمه بجوارها في معظم المقالات.

_لكنك عملت معها في بداية حياتكما، تلك المقالات محيت بفعل فاعل من أرشيف موقع الجريدة الإلكتروني.

_شيء طبيعي، هي كانت تعمل معنا، ونحن فريق واحد ونشترك في الكثير من التقارير والمقالات.

_سهام مفقودة منذ فترة كبيرة يا أستاذ محمد، أرجوك لو تعلم أي شيء أن تخبرني به، هي مسألة حياة أو موت.

_أنا لا أعرف أي شيء، وأرجوك لا تضيع وقتي؛ فأنا مشغول جداً.

كتبت له رقم هاتفي المحمول في ورقه: أرجوك لو تذكرت شيء اتصل بي.

الإحباط يزحف على روحي، يسلسلها، ويحجب عنها الشمس، وطواطٌ أنا، أبعث صدى ألمي؛ فيصطدم بحوائط الوجع، فيرتد لي، دموعي

تنتحر على شواطيء عيوني، تبحث عن قارب آمان، قارب أمل، فتضيع في دوامات البحث.

اتصل بي يوسف فرحاً: كريم، كريم، بتول ستأتي مصر، السعادة لا تسعني.

سعادته تنتقل لي عبر أوردة صوته، يرسلها نغمات تكتب على جدران قلبي، طائر الحب يكتب رسالة لا تنتهي، يلون بها الدنيا.

_ستصل مطار القاهرة بعدة ثلاثة أيام، سأسافر بعد غدٍ إن شاء الله، أراك بخير.

_ألن أراك قبل أن تسافر؟!

_لا أظن، صراحةً مشغول.

كأني أرى وجهه، يُزرع بعشب الابتسام، يجري فوقه لاعبو الحب؛ فيحرزون الأهداف، ويحتفل الجمهور. الشمس تُشرق من الناحية الغربية، ويتوقف الزمن من أجل العاشقين.

_من وجد أحبابه نسي أصحابه يا سيدي.

أعود للبيت، الجدران مغطاة بالسواد، صوت ضجيج في كل مكان، أشياء تُكسر، صوت بكاء وكأن ثلاثتهم يبكون، تهطل دموعي على جبل

وجعي؛ فتكون نيلاً لا يوقفه سد، ولا يحتويه بحر، تنبت حوله غابات من اليأس.

لمحت نور، ظهرت أمامي لعدة ثوان واختفت.

_نور، نور! سامحيني: لا أقدر أن أفعل شيئاً، كل الطرق مسدودة، أشعر أني أسير بمتاهة، لا سبيل للخروج منها، سامحيني: فعلت كل ما بوسعي.

المياه تدخل من كل مكان، تحطم النوافذ، وتُزيح الأبواب، أهرب، فتمسكني خيوط عناكب تخرج من بين الشقوق، مقيدٌ وسط الماء، أحاول الخلاص، فتحرقني شمسٌ نبتت وسط الماء، أصرخ، وأصرخ، عيني زائغة، ماذا يحدث لي؟! أرى جثة عالقة في الماء، جسدي ينتفض خوفاً، تقترب مني، أتحقق من ملامحه، إنه عبد القادر، فتح عينيه فجأة ونظر نحوي، يمسك بي، أسمع صوته هامساً: أنقذني.

كل شيء يعود لسيرته الأولى، يده تبتعد، عينه تُغمض، يبتعد ويختفي، يعود الماء ويخرج، قيدي يختفي، النوافذ والأبواب تعود كما كانت. وجدت نفسي ملقى بوسط الصالة، عيناي دامعة، أنفاسي تتلاحق، يتصبب العرق من جسدي، أهمس: سأحاول، سأحاول.

قابلت هبة في كافيتريا كلية العلوم، أشعر بأنها مركز الكون، تدور حولها كل الكواكب والشموس، تظهر الأوهام وتختفي، وتبقى هي الحقيقة الوحيدة.

الأسرار داخلي تحتل أرضي، تعذب شعبي، صرخة تأتي من عمق روحي تزلزلني، أريد أن أُخرج ما بداخلي، لن أستطيع أن أخفي أكثر من ذلك، حكيت لها كل شيء، أحكي و أرى كل ما مر بي أمامي كلقطات السينما. تختلط الصور داخلي..نور، سهام، عبد القادر. جسدي يهتز بعنف، تقترب مني، تمسك يدي، تهمس في أذني: أنا معك.

أتشبث بيدها قائلاً: لا أستطيع المكوث هنا أكثر، هيا بنا.

قوات السكينة تعبر نهر روحي، تمنحني صكاً للمغفرة، وطريقاً نحو الخلاص.

_ أحس بالعجز، اخترقت وادي انعدام الجاذبية، أرى كل الأشياء حولي، أحاول ملامستها، فأجدني مقيداً في الفراغ، تصطدم بي فلا أستطيع أن أتفاداها أو أمسكها حتى لا تصطدم بي مرة أخرى.

تنظر بعيني مبتسمة، تشرق شمسها على وجهي؛ فتبدد ظلامي نوراً، وتصهر جبال جليدي، تجعلها أنهاراً سعيدة تسري بشراييني.

_أنا أحبك.

_وأنا أعشقك يا سعادتي وفرحتي، أنتِ تغيريني في لحظات، حبك طوق نجاة في بحر القسوة التي أحياها.

رقم غريب يتصل بي، لا أعرف ما سر تلك اللهفة؟! تضطرب أعصابي وأنا أضغط لقبول المكالمة، إنه الأستاذ محمد عمران.

(٨)

ذهبتُ إلى كوستا كافية، رأيته من خلف الزجاج يجلس ينتظرني، يحرك يديه كثيراً، دلفت من الباب الزجاجي، سلمت عليه، نظراته تطوف المكان، قال لي: أنه لن يتأخر.

_سهام كانت زميلتي في الجامعة، أعجبني نشاطها المستمر وطموحها الكبير، كانت صاحبة فكرة مجلة "على الطريق"، وهي مجلة ورقية تصدر بالجامعة، تحمست كثيراً للفكرة، كونّا فريق عمل من أصدقائنا، بالمجهود الذاتي ارتقت المجلة، ننفق عليها المال والوقت، تمتلك عينين حالمتين، تعطينا أملاً في المستقبل والحياة، ذهبنا لكل مكان بمحافظة أسيوط، قمنا بحوارات مع كافة الشخصيات العامة الموجودة في المدينة، وأيضاً مع أساتذة الجامعة، كتبنا عن كل المشاكل التي تواجه المواطن الصعيدي، هدفنا خدمة البلد وإيصال صوت رجل الشارع إلى المسئولين؛ بعد صدور عدد المجلة الشهري، نمر على مكاتب المسئولين ونعطيهم نسخة منها. أرسل لنا رئيس الجامعة لنقابله، ذهبت أنا وهي، أخبرنا بأن العدد الماضي هو آخر أعداد المجلة، ثارت عليه، قال لها: هذه توصية أمن الدولة، ليس لي حيلة في الأمر؛ غضبت غضباً شديداً، قالت له: أنا أرفض هذا التدخل، نحن نخدم الناس البسيطة، لماذا تريدون حجب أصواتهم؟! قال لها بصوتٍ محتد: لا داعي للنبرة الخطابية، أنتم تشوهون البلد وتنشرون غسيلنا القذر، الكلام انتهى.

صمت قليلاً ثم نظر في عيني وقال: أتعرف يا كريم..أنت تشبهها كثيراً، نفس العيون الحالمة، عندما جئت إلى مكتبي، تذكرتها، تذكرت أحلامها التي بلا حدود، كانت تقول لي دائماً: أحلم بمصر جديدة.

تخرجنا سوياً، عملنا بجريدة " صوت أسيوط "، جريدة منكفئة على إقليميتها، لكن سهام كعادتها شجعتني، نستطيع أن نصنع أحلامنا من هنا، نستطيع أن نجعلها تُقرأ في كل مكان في مصر، أحلامها لا يوقفها سد أو أي عائق، ذهبنا لكل أنحاء مصر، نغطي كل الأحداث، ذهبنا للمحلة، والدويقة، رأينا مصر وهي تُذبح ببطء، تم استدعائي بمقر مباحث أمن الدولة، أمطروني بسيلٍ من الأسئلة عن كل شيء، وعن علاقتي بسهام وعملنا سوياً، قال لي الضابط المحقق: أنتم تصنعون المشاكل منذ أن كنتم بالجامعة. تم احتجازي ثلاثة أيام بدون نوم، خارت قواي، فقدت قدرتي على النطق.

_سوف تخرج هذه المرة، المرة الثانية لن تخرج، سترى ترحيبنا الحقيقي، أتمنى أن لا أراك هنا مرة أخرى يا محمد.

مكثت أسبوعاً في البيت لا أكلم أحداً، ثم عدت مرة أخرى للجريدة، علمت أن سهام هي الأخرى تم احتجازها لمدة خمسة أيام، لكنها مازالت قوية، ازدادت إصراراً وعزيمة، أخبرتني أنها لن تتراجع، وستظل تكشف الفساد.

أخبرنا رئيس التحرير بأني نُقلت للصفحة الفنية، وأنها نُقلت لصفحة الرياضة، امتنعنا عن العمل لعدة أيام، أرسلت لنا الجريدة إنذاراً بالرفد للغياب.

ازداد الأستاذ محمد عمران اضطراباً، يحرك عينيه بسرعة، نظرات الحزن تكسوه، لم يستطع منع دموعه.

_وافقت، لم يكن لدي مورد آخر للرزق، أما هي صمدت حتى النهاية، جاءت وأخبرتني أنها ستقدم استقالتها، قالت لي يومها: لن أدع أحداً يسيطر عليّ، سأقول الحق مهما كانت الظروف، سأكون سهماً نورانياً يضيء الظلام، صديقي الغالي محمد تحمّل، كن قوياً؛ فالحق غالب مهما طالت سنوات القسوة، استودعكم الله.

كنت أهاتفها دائماً للاطمئنان عليها، لم تضعف قط، لم ينثني عودها أبداً، حتى علمت بخبر اختفائها، والعثور على جثة زوجها.

ناولني ورقة مطوية، وصافحني مستأذناً بالذهاب..

_ربنا معك يا كريم.

فتحت الورقة، مكتوبٌ فيها: مدونة سهام النور.

خرجت مسرعاً، هاتفي يرن، إنه يوسف، ياه لقد نسيته وانشغلت عنه.

_أزيك يا كريم، ما هي أخبارك يا جميل ؟

_ أنا بخير الحمد لله، أين أراضيك يا بني؟ هي البنت أخذتك لهذه الدرجة؟!

قال لي ضاحكاً: عندما آتي سوف أخبرك، المهم لا تقلق عليّ، أنا بأحسن حال.

ذهبت لأقرب "سايبر"، كتبت على موقع البحث " مدونة سهام النور "، القلق طائرٌ أسود ينقر قلبي، عيني تتطلع للصفحة وهي تقوم بالتحميل، وجدت المدونة، الصورة الشخصية سهام جالسة تضع يديها على كتف نور الواقفة. خلفية المدونة عبارة عن سهامٍ نورانية تنطلق في كل الاتجاهات، حواسي متحفزة إنها التي رأيتها في السماء، على صدر المدونة نفس العبارة..

*سهام النور تهدم ظلام الأنفس،*

*تقتل وحوش الليل،*

*تنشر الحب والخير في كل مكان.*

آخر إدراج بعنوان " لا فائدة ". لا يوجد نص مكتوب بل صورة فتاة صغيرة منزوية في ركنٍ مظلم تبكي.

مواضيعٌ كثيرة عن التأهيل النفسي للمعتقل مصحوبة بدراسات في علم النفس تبين النتائج النفسية المترتبة على الاعتقال، وكيفية التعامل مع المعتقل. أيضاً التقارير السنوية لمنظمات حقوق الإنسان بمصر. في الإدراجات القديمة مقالاتها المنشورة بجريدة صوت أسيوط مؤرخة، كما في الأعداد الورقية.

***

عاد يوسف بعد عشرة أيام، أصبح شخصاً آخر، كثير الصمت، عندما أنظر إليه من بعيد ألمح شمس ابتسامة تشرق على وجهه.

_يجب أن تنتبه لدراستك يا يوسف، وأن تُحَصِّل ما فاتك.

_لا تقلق يا كيمو، أنا وعدت بتول أن أنجح بتفوق، لدي طاقة كبيرة يا صديقي.

_ ربنا يوفقك ويسعدك يا أعز الأصحاب، ألن تحكي لي عن بتول، والفترة التي جعلت الابتسامة لا تفارقك ؟!

_تعرف! أنا لا أستطيع أن أعبر عما بداخلي، أشعر أني خارج حدود الكون، أركض في حدائقه الخرافية.

_يا سيدي يا سيدي!! لقد أصبحت شاعراً.

_لو قاطعتني مرة أخرى، لن أحكي لك أي شيء.

قلت له مبتسماً: يا عم أحكي، لن أقاطعك.

_لم أصدق أنها أمامي، أننا في حيزٍ ومكانٍ واحد، تلك الحدود الغبية التي تفصلنا ليس لها وجود، شعرت بأني كنت صلصالاً بلا روح، جسداً هالكاً، وعندما رأيتها عادت لي روحي، دبت فيّ الحياة. أخذتها بين ذراعيّ، أتحسس وجهها، هي حقيقة أم مجرد حلم عابر، سرعان ما أستيقظ منه لأجد نفسي مازلت وحيداً ؟!

وجهها رائقٌ كأنقى وأعذب بئرٍ على وجه الأرض، رسمنا خطانا بنور أقدامنا، على الكورنيش، في وسط البلد، الأهرامات، ذهبنا إلى الإسكندرية ورأس البر، وقفنا عند اللسان، لتلتقي روحانا هناك، التقينا بطيفينا الذي كنت أتخيلهما يسيران في كل مكان، لا وجود للحدود والفواصل التي تفصل بين الحبيب وحبيبه، بين الروح والجسد، بين الزرع والتربة التي يضع بها جذوره.

أحبها يا كريم، لا أتخيل حياتي دونها، مليئةٌ بالحنان والرقة، أشعر أنها أمي وأختي وصديقتي، هي عشقي الوحيد.

ترقرقت الدموع بعينيه وهو يقول: رحلت يا كريم؛ لأفقد طعم الحياة دونها.

أشرت إلى قلبه وقلت له: لم ترحل يا صديقي؛ فهي تسكن هنا.

_سأذاكر بجد، لابد أن أجعلها فخورة بي.

***

أشعر أنني فرد من العائلة، نور أصبحت الشمس التي تشرق علىّ، تخرجني من الحزنِ والأسى، أخذت بيدي، جعلتني أرى هبة بعيون العاشق، منحتني أجمل هدية.

وصلت للجامعة، عربات الأمن المركزي تحاصر كل المداخل والمخارج، دخلت من باب كلية الهندسة، قام الأمن بالتأكد من كارنية الكلية، وتفتيش حقيبتي، فتحوا لوحات الرسومات التي أحملها بهمجية، مُزقت أحد اللوحات، صرخت في وجه الضابط: هذه لوحات، ماذا سيكون بها؟!

نظر لي نظرة استعلاء، قال لي بصوت عصبي ثائر: هل ستعلمني عملي؟! دخلت منشورات محرضة من قبل على شكل لوحات هندسية، اتفضل ودعني أكمل عملي.

شيءٌ غريب يحدث، إجراءات أمنية مشددة غير مسبوقة، اتصلت بهبة أستوضح ما يحدث:

_هبة! أين أنتِ؟ أوحشتني.

_ وأنت أيضاً يا حبيبي أوحشتني جداً، أنا في الكلية منتظرة المحاضرة الأولى، لم يأت الدكتور حتى الآن.

_اليوم محاضراتي بعد الظهر، ماذا يحدث بالجامعة ؟!

_مظاهرة كبيرة احتجاجاً على اعتقال طلبة من كلية الطب. أنا لن أحضر المحاضرة، تعالى نقعد مع بعض.

_دقائق وسأكون عندك.

الساحة تمتليء بأشخاص ليسوا طلاباً؛ فسنهم كبير قليلاً، ينظرون نظراتٍ مريبةً، يحدقون في المارة، لمحت أحد الأشخاص يلقي بأوراق من أعلى الكلية ويختفي بسرعة، لقد صدق حدسي، عيون الرجال تتراقص مع تراقص الأوراق في الهواء، يهرولون خلفها، يجمعونها، يلاحقون أي شخص يرونه يلتقط أحد الأوراق، استجمعت شجاعتي، التقطت ورقة، دسستها بجيبي بسرعة، اتجهت لكلية العلوم مهرولاً. رأيت هبة تنتظرني، أول ما رأتني قالت:

_ اليوم لن يمر بسلام. هل ستشارك في المظاهرات؟!

_ بالطبع، لابد أن نقف مع زملائنا المعتقلين، وقد يكون أحدنا مكانهم المرة القادمة.

فتحت الورقة التي التقطها، وقرأت المكتوب بها بصوتٍ عالٍ:

<u>بيان طلاب هندسة أسيوط</u>

" ضد أي تعدي على حرية التعبير، ضد الاعتقال بدون وجه حق، ضد الظالمين الذين يتسترون خلف قوة أمنية غاشمة، لن نصمت على الظلم مرة أخرى، تتخلص مطالبنا..

١_ الإفراج عن المعتقلين.

٢_التمسك بمجانية التعليم.

٣_الكشف عن ميزانية الجامعة.

٤_طرد الشرطة من الحرم الجامعي، والاكتفاء بالحرس الجامعي.

٥_دراسة بعض المواد العلمية التي تؤهل لسوق العمل.

الحرية لمصر. "

جاءت مسيرة قادمة من اتجاه كلية التربية الرياضية، حاول حرس الجامعة تفريقهم، لكن الأعداد تزداد، انضممت أنا وهبة للمسيرة، نهتف بأعلى أصواتنا: الحرية للمعتقلين. أفرجوا عن مصر.

اتصل يوسف؛ فأخبرته عن مكاننا، أتى معه عمر.

_لماذا جئتما؟

قال يوسف باسماً: وهل تظن أننا سنترك هذا اللقاء الرومانسي لك وحدك؟!

عمر: جئنا لنغير جو.

_ ربنا يجعله جو بحري، لا جو قادم من بلاد أفريقيا.

عمر: بحري، أفريقي..كله جو.

نطوف أنحاء الجامعة، تهتف قلوبنا وحناجرنا: مصر، مصر. نمر على جميع الكليات، ينضم لنا أعداد كبيرة عند كل كلية، يظل هناك أعداد أكثر يراقبون المشهد من بعيد، يصورون المسيرة بهواتفهم النقالة، ننادي عليهم هاتفين: لا تخف يا طالب، السجان هو الراسب. تعالوا، تعالوا.

أرى سهام بين جموع المتظاهرين، تهتف بكلمات غير مفهومة، وجهها يكسوه حزنٌ لا ينتهي، أحاول اللحاق بها، كلما اقترب منها تبتعد كالسراب. وحدي وسط وجوه غريبة، أبحث عن هبة، يوسف، وعمر. أدور باحثاً عنهم، يدفعني المتظاهرون للأمام، لا أستطيع الوقوف للبحث عنهم، رأيت سهام مرة أخرى، الأرض تدور بي، المتظاهرون يتحركون ببطء غريب، عيني ترى الأشياء بغير وضوح، أمسكت بي هبة فجأة وهي تصيح: كريم، كريم..أين اختفيت ؟!

_قام المتظاهرون بدفعي. أين يوسف وعمر؟!

_ لا أعرف، أنتم الثلاثة اختفيتم فجأة.

اتجهنا لمكتب رئيس الجامعة لنعرض عليه مطالبنا، اعتصمنا أمام مبنى رئاسة الجامعة، وأخذنا نهتف بكل قوة: اخرج لنا، اخرج لنا.

لم يخرج، ظل قابعاً في مكتبه، بعد قليل جاءت عدة عربات أمن مركزي نزل منها المئات من العساكر مدججين بالعصي والدروع والخوذات، قاموا بحصارنا ، أمسكتْ هبة بذراعي: ماذا سيفعلون بنا؟!

_لا تخافي يا حبيبتي، لن يصيبنا مكروه.

وقف أمامنا عقيد شرطة، يرتدي رداءً أسود، عابس الوجه، شحيح الابتسامة، صوته خشن كصوت طاحونة القمح عندما تمتلئ حتى آخرها.

_لا نريد أي تجمهر، لا تجبروني أن أفعل شيئاً تندمون عليه.

وقف شابٌ يرتدي تيشرتاً مكتوب عليه " لا للتوريث، لا لتزوير الانتخابات " يصرخ بكل قوته: القانون يمنع دخول الشرطة للحرم الجامعي.

رد عليه بصوتٍ غاضب: هذا قانون أمك. عامل فيها مناضل يا روح خالتك.

تعالت الأصوات الغاضبة بالصفير للتشويش عليه، هتفنا بكل قوة:

حرس حرس حرس ليه، إحنا في سجن ولا إيه؟!

مصر..مصر..مصر

الكلمة تخترقني، تزلزلني من الداخل، لم أستطع منع دموعي، رأيت مصر فتاة ضعيفة، رمى بها السجان لقعر سجن مظلم، تسكنه الأفاعي والعقارب.

تشبثت بي هبة أكثر، سمعت عمر ويوسف يناديان عليّ: كريم، كريم.

_أنتما هنا ؟!

ابتسم يوسف، وقال: قلت لك من قبل، هل تظن أننا سنترك هذا اللقاء الرومانسي لك وحدك؟!

ظهر عقيد الشرطة مرة أخرى، يحمل ميكروفوناً، يصيح بكل قوته:

أيها الشباب، أعلم أنكم تحبون مصر، لكن ليس بالوقفات والاحتجاجات ستكون أفضل، بل بالدراسة والعمل الحقيقي، انتبهوا لدراستكم؛ حتى تصبح مصر أفضل وأجمل، أحادثكم كأخ أكبر، يعرف ما لا تعرفونه، يجب عليكم عدم التجمهر وإلا سترون العين الحمراء.

أخذنا نصيح: يا حرية فينك فينك، أمن الدولة بينا وبينك.

جاءت أعداد أخرى من عربات الأمن المركزي، نزل منها أعداد كثيرة من الجنود، أشار العقيد للجنود بالتحرك، بدءوا باقتحام الزحام، مستخدمين دروعهم وعصيانهم، عيناي تسافر في العيون المرعوبة، أمسكت هبة يدي بشدة، أزاحني عسكري بدرعه فسقطت أرضاً، يوسف أخذ ضربة بهراوة على رأسه، تجمع حول هبة العديد من

العساكر يضربونها بالعصيان، قمت بسرعة، أصنع بجسدي درعاً بينها وبينهم، تتلاحق الضربات في كل أنحاء جسدي، أحاول أن أمنعهم عنها، لكن الضربات تأتي من كل اتجاه، أصيبت بعدة كدمات، أنزف من رأسي دماءً كثيرة، ضُربت عدة ضربات على رجلي جعلتني أعرج قليلاً، رأيت يوسف يسقط على الأرض، يتجمع حوله العساكر يركلونه بالأقدام، استجمع قوته وقام بسرعة هارباً، لم نصمد أمام الهروات والعصيان، صاحت بي هبة: علينا بالهرب. العساكر يطاردوننا، يمسكوا كل من يلحقوا به، اختفى يوسف عن نظري، رأيت عمر وهم يمسكونه، يزجون به داخل إحدى العربات، أشعر بالعجز قيدٌ يكبلني، لا أستطيع الفكاك منه، يجثم على روحي، فأسقط في هوة سحيقة.

رأيت سهام من بعيد تراقبنا، نظرات الخوف والهلع باديةٌ عليها، تتجه ناحية كلية طب، أمسكت بيد هبة قائلاً لها:

_علينا الخروج من هنا سريعاً.

أتتبع سهام، كأنها تقودنا إلى مكانٍ ما، أو تحاول أن تساعدنا على الهرب.

_نحن شموسٌ بلا أشعة، أقمارٌ بلا نور، وطنٌ يقتل أبناءه، يلفظهم إلى قاع البحر ليواجهوا مصيرهم المظلم.

_هون عليك يا كريم، مصر قادمة، تستيقظ الآن من غفوتها.

من أين تأتي بتلك القدرة على التفاؤل، جزيرةٌ بيضاء في وسط عالم من السواد، قلبٌ نابض في صحراء اليأس، هي القمر الذي ظهر لي في ليالي الشتاء المظلمة، هي الدفء والحنان، هي مصر بكل جمالها وعمقها.

وصلت سهام لشجرة النبق خلف كلية طب، جلست أسفل منها، تستند على جذعها، اختفت فجأة، جلست أنا وهبة في نفس المكان، مستندين أيضاً لجذع الشجرة، نلتقط أنفاسنا، ونستجمع شجاعتنا التي هربت مع هروبنا.

_هذه ليست بلدنا يا هبة، هل هؤلاء مصريون؟!

_هم ليسوا مصريين يا كريم، المصري لا يؤذي المصري.

_لنمكث هنا حتى نرتاح، وتهدأ الأحوال.

أخرجت هبة من حقيبتها بالطو أبيض يشبه رداء الأطباء تدخل به معمل الكيمياء، قالت: سنخرج من بوابة القصر العيني الملحقة بالجامعة لدخول طلاب الطب، ارتدِ هذا البالطو، وسأدخل معك، الأمن يعرفني ويظنونني طالبة طب؛ فأنا آتي مع صديقتي شيماء دائماً هنا.

جاء المساء، هدأت الأجواء، اتجهنا لبوابة القصر العيني، سلمت هبة على رجل الأمن الواقف على البوابة: سلام عليكم، كيف أحوالك يا عم إسماعيل؟!

_ الحمد لله يا دكتورة.

وصلنا للبوابة المطلة على شارع الجامعة، خرجنا منها، لاتزال عربات الأمن المركزي تحاصر كل مداخل الجامعة، وصلنا لمباني المدينة الجامعية، صعدت هبة، وهي تقول لي: طمئني عليك عندما تصل.

مشهد اعتقال عمر أراه أمامي في كل مكان، حاولت أن اتصل به أكثر من مرة لكن هاتفه مغلق، اتصل بي يوسف يطمئن عليّ، أخبرني بأنه استطاع أن يخرج من بوابة الجامعة الخلفية، سألته هل رأي عمر مرة أخرى، قال لي: عمر اختفي فجأة أثناء الهجوم علينا، ولم أره منذ تلك اللحظة.

أشعر بالضياع، لست إلا طاقة مهدرة، مصباح ملقى على جانب الطريق، وأنت يا وطن شجرة لا تثمر ؛لأن جذورها أبت أن ترتشف رحيق الحياة.

لست إلا غواية تطعن جسدي، تجمله وتنقيه وتلقيه في ساحة الكلاب.

سرادق عزائي منصوب على تلة من سراب، تكونت عبر سنين الوهم المحفوظة في الذاكرة.

أنا مجرد تفاحة سقطت من شجرة جافة، فتمردت على قوانين الجاذبية، وتضخمت وطارت إلى المجهول.

وأنت لست إلا بركة ماء راكدة، ما إن مددت يدي لأروي عطشي؛ حتى هاجمتني الرياح السامة؛ فسقطت ولم أصل للقعر حتى الآن.

وصلت للبيت، لا أرى بوضوح، أصوات ضجيج تنبعث من كل اتجاه، كل الأشياء تحلق حولي في فوضوية عظيمة، الأسرّة، خزانة الملابس توشك أن تصطدم بي، أنحني فتجتازني وتصطدم بالحائط وتعود مرة أخرى، أوراقٌ تتطاير حولي، أواني المطبخ تصطدم بعضها البعض، كل الأشياء تضيع من حولي، تطير خارجةً من النوافذ والأبواب، أحاول أن أمسك بها؛ فتهاجمني وتلقي بي على الأرضية السيراميك، أراقبها من النافذة، رياحٌ شديدة تمزق روحي، تهز أشجار الحديقة بقوة وعنف، توشك أن تقتلعها، عبد القادر يزرع بعض النباتات في الحديقة، البيت خاوي، لا شيء سوى الخوف والضياع، لا شيء سوى أرواحٍ فقدت مستقبلها، أجن، أضرب الجدران بكل قوتي، أسقط من التعب باكياً، يهدأ كل شيء فجأة، لا أصوات، لا فوضى، صوت أقدام صغيرة قادم من غرفتي، توقعت أن تكون نور، أتطلع إلى مصدر الصوت بلهفة، ما إن رأيتها حتى ارتسمت الابتسامة على وجهي، شعرت براحة تتسلل لجسدي المتعب، لوحت لي مبتسمة، غزتني قوات سعيدة، حاصرت الحزن والخوف، قتلته، جعلته يهيم على وجهه في الفضاء بلا وجهة.

(٩)

أيتها البحارُ المُشَرِدة، ضعت في حاناتك المطوية، مزقتني شموسك الأفلة، تلقفتني الجراح؛ فلم أعد قادراً على الغناء. شجرةُ الحياة ما عادت تُثمر، اختفت في أرض الروح المنسية، ضاعت أسفل شجرة الحبيبة. شاهدٌ بلا قبر موضوع في ردهة النفس الحزينة، يبكي ليلاً حداداً على تلك الفتاة التي جاءت من بلاد العناقيد الملونة، تحمل كروماً بطعم الحياة، تحمل بقلبها سر التوتة المسحورة التي جاءت من بلاد الحلم.

اتصل بي أمجد في الصباح، شعرت بالفرحة لمجرد سماع صوته..

_أوحشتني يا كريم، مفتقدكم جداً والله.

_أنت أوحشتني أكثر، طمئني عنك، مرتاح في السفر؟

_أتعرف يا كريم؟ أنا أول مرة أشعر أني مهندس، أول مرة أشعر بأني بني آدم.

_إن شاء الله ترجع قريباً يا صديقي.

_أنا لن أرجع، سأستقر هنا.

_أنت ناوي تنسانا ؟!

_ أنا عمري ما أنساكم، أنتم أجمل شيء قابلته في مصر.

قلت له مازحاً: أنا خائف عليك من بنات غانا.

_لا تخف، أنت تعرف أني أشبههن.

_لا يا أمجد، أنت أشقر بالنسبة لهن.

أنهى الاتصال على وعد أن يتصل بنا دائماً، وسط كل ما مر بي، كنت فرحاً؛ لأنه أخيراً وجد طريقه، لم أخبره بما حدث بالأمس، وباعتقال عمر، ما به يكفيه وزيادة.

أشعر بالثورة والعجز، أهذا وطننا الذي تربينا على حبه؟! هل ضاع عمر هكذا؟! تقابلنا في كافيه بشارع النميس.

_ يوسف! أنا قلق جداً على عمر، سأموت من القهر.

_ لا أعرف ماذا نفعل، نحن عاجزون يا صديقي.

_ يجب أن نفعل شيئاً، هو صديقنا وليس له غيرنا، لا يجب أن نتركه يواجه ذلك المصير.

_وماذا سنفعل يا كريم، وماذا بأيدينا؟!

_هل معك صور الرحلة؟

_نعم، ولكن ماذا تنوي أن تفعل؟!

قمت بوضع الصور على جهاز الكمبيوتر، حددت الصور التي يظهر بها عمر، وقطّعتها ليظهر بها عمر فقط، قمنا بعمل الكثير من الملصقات، صورة عمر مكتوب تحتها "الحرية لعمر". قدنا حملةً موسعةً بنشرها في كل أنحاء الجامعة، هبة شعلة نشاط، تعمل ولا تكلّ، انضم لنا الكثير من الطلاب، نعمل ليلاً ونهاراً. نظمنا الكثير من الوقفات في الجامعة، وأمام المحافظة، وقسم ثان، ومقر أمن الدولة.

ظل الوضع هكذا لمدة شهرين، كر وفر بيننا وبين قوات الشرطة، ولا أخبار عن عمر. جاء يوسف ذات يوم يصيح، كنت ساعتها جالساً أنا وهبة بكافيتريا كلية العلوم.

_ عمر خرج! عمر خرج يا كريم، رأيته منذ قليل بساحة الكلية، أخذته بالحضن، حاولت أن أطمئن عليه؛ لكنه لا يتكلم، نظر إليّ بغرابة ثم تركني ورحل.

ذهبنا مسرعين نبحث عنه، رأيته جالساً بمفرده على أحد المقاعد، اقتربت منه لأحضتنه، لكنه دفعني بيديه، وجهه ليس به أي انفعال.

_أوحشتنا جداً يا عمر، الحمد لله على سلامتك.

لا ينطق، جمع أشياءه وتركنا تأكلنا الحيرة. حاولنا في الأيام اللاحقة أن نحادثه، لكن كل محاولاتنا باءت بالفشل، يأتي المحاضرات لا يحادث أحداً، أصبح يتغيب كثيراً، نظراته مشتتة حزينة، ماذا حدث له يا تُرى؟!...

حاولنا بشتى الطرق أن نعرف منه ما حدث، لكنه صامت كتمثال أبي الهول، كلما رآنا يشيح بوجهه عنا، إلى أن انفجر يوماً!...

_ دعوني وحالي، لا أريد أن أعرف أحداً فيكم، حرام عليكم، دعوني وحالي.

لم أفقد الأمل مطلقاً، سنسترد وطننا، لن نتركه لأبنائه العاقين، شغلتني امتحانات أعمال السنة. فتلك الأحداث جعلتني متأخراً قليلاً في الدراسة، صممنا جريدة حائط، نتحدث عن الحرية، عن النور والحق، عن بلدنا المفقودة، نُعلقها في غفلة من الأمن؛ حتى لا يعرفوا شخصياتنا، علقناها أول مرة في مدخل قسم مدني، ومرة أخرى أمام مدخل قسم عمارة، ومرة علقناها على شجرة بساحة الكلية.

***

أصبح يوسف لا يُفَوِتُ شيئاً بالكلية، يحضر كل المحاضرات، يكتب كافة التقارير في مواعيدها، أنظر إليه مبهوراً:

_ هل تحبها كل هذا الحب يا صديقي؟!

يضحك حزيناً ويقول لي: بتول! هي حياتي الماضية والقادمة، حياتي التي أود أن أعيشها، عندما رحلت، رحلت روحي معها.

بدأت امتحانات آخر العام، أسهر ليلاً أذاكر، أكاد لا أنام، نور تمرح في كل أنحاء البيت تؤنسني، أراها تلعب، تختفي فجأة، فأظل أبحث عنها؛

فتفاجئني من خلفي: أنا هنا. ألتفت إليها باسماً، وأقول لها: أنتِ في كل مكان يا نور.

أجتاز الامتحانات بفرح، خصوصاً امتحان الرياضيات، لم يتبق سوى امتحانين، اتصلت بي هبة، أخبرتني بأنها تشعر بالملل وتريد الخروج، ارتديت ملابسي سريعاً ونزلت لرؤيتها، كم أشتاق إليها.

هبة، تلك الفتاة الملاك، أشعر بجوارها بأني في الجنة، كل شيء جميل، كل شيء يغني من حولنا..السيارات، الطريق، ضجيج الناس غناء، صوت ارتطام الماء بقناطر أسيوط أجمل موسيقى.

على ترعة الإبراهيمية يُبسط الصيادون أيديهم ليجمعوا رزقهم، يرمون الشباك فارغة: فتخرج أجمل الأسماك. الشمس فرشاة تلون الأشياء باللون القرمزي ساعة الغروب، يمتد العالم معها لحدود اللانهاية، حيث الروح لا تشعر بالزمن، حيث الروح تترنم بترانيم الأبدية.

_ نحن لا نموت يا كريم، أعمالنا تبقى، تُرشد الناس وتقوي عزائمهم، من أراد الخلود فلا يعش لنفسه، سيكون هنا في زمنٍ آخر أشخاصٌ لا يختلفون عنا كثيراً، يسيرون في نفس الأماكن، في نفس الجزء من الأرض، تلون بشرتهم الشمس باللون القرمزي مثلنا، يحلمون بغدٍ أفضل كما كنا نحلم.

أمسك يدها وأقول باسماً: يمسكون بأيديهم كما كنا نفعل. وضعت رأسها على كتفي وقالت فرحةً: ويضعون رءوسهم على أكتاف بعض مثلنا تماماً.

طائر الحب يبذر بذوره في كل مكان حولنا، يهتف لنا: تقدما!

_ أمنيتي أن نكبر سوياً، أن أتحسس شعرك الأبيض وتجاعيد وجهك.

_ أمنيتي أن أرى طفلنا الأول، سنغسله بماء النيل، ونعطره بشعاع مصر النادي.

أكتب على الهواء أحبكِ.

تقول ضاحكةً: أكتبها على جانب الطريق؛ حتى لا يصطدم بها المارة في المستقبل.

***

رجعت للمنزل متأخراً، لم أغير ملابسي من التعب، ألقيت بجسدي على السرير، بين النوم واليقظة، شريط الذكريات القريبة يتسارع داخل عقلي، أحلامي تُغالب نومي، تحاول الصمود أمام سلطان النوم، لكنه يأخذني إلى مدنه المغطاة بالشمع الملون، وأشجاره الزرقاء المحنية، أجد نفسي في طريقٍ طويل، الضباب يحيطني من كل مكان، وجه هبة يُشرق بين الحين والاخر؛ فأتشجع وأخطو نحو الأمام، قدمي تغوص في الأرضية الغير مستقرة؛ فأخاف أن أستمر في السير، وأتوقف

في المنتصف كتمثالٍ يترقب لحظة تحطيمه، أسمع همهمات غير واضحة حولي، أحاول أن أتبين مصدر تلك الأصوات الغريبة، أرى رجلاً مقيداً بالسلاسل، وقع في نفسي أنه الوطن، يسوقه بعض الرجال إلى حفرة صغيرة، يبكون وهم يحشرونه حشراً في تلك الحفرة الضيقة، يصرخ فيهم باكياً: ماذا تصنعون بي يا أولادي؟! لكنهم لا ينصتون لبكائه ونحيبه. يكملون دفنه، هدوءٌ عجيب يسري، لحظة سكون كل شيء، الأشجار صامتة تنتظر العودة، الرياح هدأت واستكانت، السحب توقفت عن الحركة، ظللت القبر حاملة جنينها ماءً، تنتظر ساعة الولادة.

طرقات قوية تنتشلني من الضباب، أقوم مفزوعاً، أخرج للصالة فأجد جنوداً ترتدي السواد تملأ المنزل، هجم عليّ اثنان، أمسكاني، وضعا يديّ خلف ظهري. الحوائط تومض وتظلم، تتحرك عليها صوراً كشاشة سينما، تنعكس صورة البيت عليها، أرى عليها جنوداً يفتشون كل مكان، نور تختبيء أسفل سريرها، تبكي فزعةً، سهام تصرخ: فيضربها جندي بسلاحه فتسقط أرضاً، يمسكون بعبد القادر، يجعلون يديه خلف ظهره، يقف أمامه ضابط يصفعه على وجهه، في نفس اللحظة يصفعني ضابطٌ على وجهي، الجنود على الحائط ينزلون، يختلطون بالجنود حولي، أصرخ صرخاتٍ مكتومةً، تنهمر دموعي مع صوت أنين نور الذي أذاب كل الأصوات حولي فما عدت أسمع سواه، أراها تلوح لي، تودعني وهم يأخذونني، يسوقوني معصوب العينين، يضربني أحدهم في جانبي، تخرج صرختي مصحوبة بحشرجة تأوه،

الرعب وحشٌ يتملكني، ينهشني، يلقوا بي بداخل سيارة، حُشرت بين أجساد تصرخ، تتألم خوفاً، العُصابة التي على عيني ترسل ظلامها؛ ليجثو فوق صدري، يوشك أن يقتلني، السيارة تسير، والخوف ينتزع قلبي من بين صدري، تتأرجح أجسادنا مع المطبات، تتوقف السيارة فجأة، يمسك بي رجلان، يلقيان بي من السيارة لأرتطم بالأرض، الدماء تغرق وجهي، أتنفس بالكاد، يركلني أحدهم في بطني، وهو يصرخ: قم يا ابن الجزمة.

اقتادوني عبر ممر طويل، أشعر بحوائطه الباردة حولي، أنزل سلالم كثيرة، قلبي ينقبض أكثر مع كل درجة أنزلها، أوقفوني فجأة، فكوا العُصابة من على عينيّ، حرروا يديّ، لا شيء تغير، الظلام يمرح أمامي، يُخرج لي لسانه، تجمع حولي عدد من الرجال لم أتبين عددهم، أدخلوني بصندوق بحجم التابوت، أصرخ، وأصرخ، لكن صرخاتي تتلاشى أمام جمود قلوبهم، أغلقوا الصندوق، أضرب جوانبه بكلتا يديّ، صرخاتي تموت على أعتاب العدم، بعد مدة ليست بالقليلة، أصابني التعب، استسلمت لوضعي، تُهت في أحراش الذكريات، أراني طفلاً أمرح أمام بيتنا في الجيزة، وجه أمي شجرة ترفرف حولي، تمنحني الظل وثماراً حانية، أراني في مركز دائرة، حولي نور وعبد القادر وسهام، ينظرون لي نظراتٍ حزينةً، يمدون أيديهم نحوي، يدورون حولي دوراناً بطيئاً، سرعان ما يتسارع ويزداد دورانهم، تختلط صورهم بداخل نسيج قوي يرسم دائرة حقيقية حولي، تُسجَن روحي داخلها، تومض صورة لبنى في مخيلتي فأزيحها سريعاً؛ لتحل مكانها صورة هبة، أشتاق

إليكِ يا حبيبتي، أحتاجكِ لتقويني؛ لتبدلي يأسي أملاً، لتخرجيني من ظُلماتي.

أسمع صوت خطوات قادمة نحوي، تتسارع نبضات قلبي، أشعر بعدة أشخاص يدورون حولي، أُرهف السمع محاولاً سماع همهماتهم، لكني لا أفهم ما يقولون، كأنهم يتكلمون بلغة لا أعرفها، أشعر بهم وهم يسكبون فوق الصندوق وأنا بداخله ماءً بارداً، أصرخ بأعلى ما أستطيع: ماذا تريدون مني؟! لا أحد يجيبني، صمت وحيرة يضغطان على روحي، أتحرك بعشوائية، الهواء يقل، أشعر بالاختناق، أرى الموت يقترب، أضرب الصندوق بيدي وقدمي محاولاً كسره، لكن محاولتي باءت بالفشل كالمرة السابقة، أبكي بحرقة، تُرى ماذا سيفعلون بي؟!...

أشعر بزحامٍ شديدٍ حولي، تتعالى أصوات الهمهمات الغير مفهومة، تزداد الخطوات، أسمع صرخات قادمة من كل مكان، هناك من يُعذب بالقرب مني، عم السكون فجأة، أشعر بأني في المنطقة المظلمة الأبدية، معلقٌ في الفضاء بلا أجنحة، أنتظر لحظة السقوط، أشعر بأني منذ آلاف السنين بداخل الصندوق، أحاول تنظيم تنفسي حتى لا أصاب بالاختناق، لكن الماء يتدفق من كل مكان، الخوف يغتالني، لم أعد أتحكم بأعصابي، أحاول أن أقويها، أجمعها كالتلال، لكنها انهارت فجأة، رُوحي تدخل صندوقاً داخل صندوقٍ، تغادر جسدي، تودعني، حياتي تتفجر حولي، أرى شظايا ذكريات، لا شيء له قيمة الآن.

فُتح الصندوق فجأة، يدٌ تطبق على جسدي بعنف، تُخرجني، أشهق بقوة، ألمح بصعوبة ظلاً لرجلٍ، يلقى بي على أرضية الغرفة، الماء في كل مكان، قبل أن أفيق من الصدمة تركني ورحل، قمت مسرعاً، تشبثت به صارخاً: ماذا تريدون مني؟! ماذا تريدون مني؟! استدار لي، لكمني بقوة في وجهي؛ فسقطت مرة أخرى، اختفى من أمامي بعد أن أغلق الباب، أخذت أدق عليه بعنف صارخاً: افتحوا، افتحوا.

ترتد صرخاتي صمتاً أبدياً، أكاد أُجن، أين أنا؟! ماذا سيفعلون بي؟! الرعب يرتديني غطاءً يجثم على صدري، تنساب المياه من الجدران، تصل لركبتي، يُسقطني التعب فلا أستطيع الوقوف، أشرأب برأسي عالياً حتى لا أغرق، النوم يهاجمني، أحاول صرعه حتى لا أسقط وأختنق غرقاً، تنهمر دموعي؛ فتمتزج بماء الغرفة تصنع ذبذبات كذبذبات نفسي المضطربة، كل المنافذ مغلقة بسدٍ من الظلام، ساعدني يا الله.

أترنح في مدن الضياع والأسى، أرى النهاية حولي، يخترق روحي صوت نحيبٌ خشن، التفت يميناً ويساراً بحثاً عن مصدر الصوت، في الجهة المقابلة لي يجلس عبد القادر كما أجلس، يشرأب برأسه كما أفعل، يبكي وينتحب، أتشجع محاولاً الاقتراب منه، يختفي فجأة كما ظهر فجأة.

بعد مدة لا أعلم مداها، لاحظت أن المياه تقل، صارت الغرفة جافة، ألقيت بجسدي على الأرضية، كانت أمنيتي لوقتٍ طويل أن يلامس ظهري الأرضية، أن أنام على وسائد الراحة وأتمدد كالميت.

امتلأت الغرفة بأشخاصٍ، أحاطوني على شكل نصف دائرة، لا أتبين ملامحهم في الظلام، وضع أحدهم كرسي في المنتصف وجلس عليه، سألني بصوتٍ أجش:

_ كيف حالك الآن يا كريم؟ يارب تكون مبسوطاً عندنا، نحن لا نمل من ضيوفنا، بالنا طويل.

لساني معقود من الخوف، تضربني الحيرة بقسوة وعنف: من هؤلاء وماذا يريدون مني؟!...

قام الرجل، حمل كرسيه وخرج، تبعه بقية الأشخاص الموجودين، عقلي يغفو، يتجمد، لا أستطيع التفكير في أي شيء، تكورت على الأرض محاولاً النوم، دخل رجلان الغرفة، أمسكوا بي، صرخ أحدهما: قوم يا روح أمك، أنت فاكرها لوكاندة أبيك؟

سحباني عبر ممرٍ طويل ضيق، قدماي لا تقدر على حملي، صرخاتٌ آتية من عمق المجهول، أنينٌ ووجع، إلى أين يأخذاني؟! أشعر بأني لست وحدي، أسمع أنفاس عبد القادر، بصمات يده على الجدران، تمتزج صرخاته بصرخاتي؛ فتهدم روحي، قيداني بجدارٍ بارد، وضعا سلكاً كهربائياً في يدي ورقبتي، ضاعت مقاومتي وصمودي، يسري التيار

يحطم كل شيء داخلي، يحطم عنفواني، يُبيد الأمل، يفرش يأساً وخوفاً وألماً لا ينتهون. ينتفض جسدي مع انتفاضة جسد عبد القادر، أين أنتِ يا أمي؟! إني بحاجةٍ إليكِ لتحرريني من قسوتهم.

توقف التيار، جاء شخص آخر وقف أمامي، هو نفس الشخص الذي تحدث إليّ بالغرفة، عرفته من صوته، قال: قول لي يا كريم على كل أصحابك المشتركين معك في النشاط الجامعي؟

أجبته بوهن شديد: لا يوجد أحد غيري.

_ الظاهر إنك لا تريد أن تستريح، ولا تعرف أين أنت الآن.

سرى التيار بي مرة أخرى، ينتفض جسدي بقوة أكثر، أسمع عبد القادر يصرخ: حرام عليكم يا أولاد الكلب.

فقدت الوعي، استيقظت بعد فترة ضاعت من توقيتي بعد أن نظرت بساعتي التي سقطت عقاربها. أفتح عينيّ بصعوبة بالغة. غرفةٌ ضيقة، تضاء بإضاءة خافتة، أتفحص جدرانها بحثاً عن نافذة تُرسل لي ضوء الشمس وشعاعها الدافئ، لكن الخيبة أصابتني لا يوجد نوافذ، مجرد كتلة خرسانية صماء.

غبت عن الوعي مرةً أخرى، أفقت لأجد رأسي مستندة على فخذ شخص..إنه يوسف، احتضنته، بكينا بشدة. أعطاني نصف رغيف به قطعة حلاوة طحينية. إستَرْدَدْتُ عافيتي قليلاً. بالغرفة ما يزيد على

ثلاثين فرداً، حمام بلدي مكشوف للجميع، يقف البعض منا معطياً الحمام ظهره للتغطية على من بالداخل، مر يومان هادئان، نتسامر أنا ويوسف، يحكي لي عن بتول..

_ إنها الشمس يا كريم.

ضحكت ضحكةً ممزوجةً بالحزن والوجع وقلت له: وأنت القمر يا صديقي العزيز.

مسح دموعي قائلاً: إن شاء الله سنخرج ، وكل شيء سيصبح بخير.

أخذوني أنا ويوسف عبر نفس الطرقة، أدخلوا يوسف غرفة أخرى، وتركوني في الخارج، بعد فترة من السكون سمعت ضربات سوط، يوسف يصرخ متألماً، أشعر بالمرارة وقلة الحيلة، أصيح وأصرخ بكل قوتي: لماذا تفعلون ذلك؟! نظر لي أحد الأشخاص نظرة كره وسخرية: لا تستعجل على رزقك.

خرج يوسف، ملابسه ممزقة، ينزف دماً من ظهره ومن صدره، علامات الجلد تسطر على جسده خطوطاً قاسية، وأحرفاً ظالمة، أمسكت بكتفه: يوسف! كيف حالك الآن يا حبيبي؟!...

_لا تخف عليّ يا كريم، أنا بخير الحمد لله، خلي بالك من نفسك أنت.

دُفعت للداخل بقوة، نفس صوت الرجل.

_ ما ذنب أمك فيما يحدث؟! ألم يثمر فيك تعبها عليك عندما مات أبوك وأنت صغير؟! بدلاً من الانتباه لدراستك، بدلاً من رؤية مستقبلك وحالك، عامل فيها عم المناضل شجيع السيما.

اقترب مني رجلان، قيداني من يدي بحبلٍ متدلي من السقف، جعلا جسدي حراً، وقف أمامي أحدهما، والآخر خلفي، انهالا عليَّ بالسياط في كل أجزاء جسدي، صرخاتي تخترق حاجز الصوت، تُلقي بي في قاع بئر سحيق، رأيت عبد القادر بالقرب مني، مقيداً مثلي، ينظر لي برعب، يجول بصره في كل أنحاء الغرفة، نسيت ألمي للحظةٍ، تذكرت عندما شعرت بنور خلفي، تلمس الندوب التي ملأت جسدي، دموعها التي سقطت على ظهري، صورة عبد القادر التي ظهرت، وكأنها انعكاس لي على الحائط، هل ما أمر به حقيقة، أم وهمٌ سرعان ما تختفي كل صوره، وأعود للمنزل كما يحدث كل مرة؟! ليته وهماً، ليته خيالاً. أصوات السياط تعيدني للحوائط الباردة، والقلوب التي لا تعرف الرحمة، ينتشلني الألم من خيالاتي الواهمة، فأقيد بخيطٍ للواقع، وآخر للخيال الهارب، تمتلئ الغرفة فجأة بأشخاص وجوههم ممسوحة بلا ملامح، معلقون مثلي، يُضربون بالسياط، يصرخون، يتأوهون، أنظر حولي تائهاً، يارب نجني، رجال آخرون يجلسون على كراسي، يوجهون لهم أسئلة كثيرة، تتداخل الأصوات، تضرب أجراساً عشوائية بعقلي.

_ لماذا ذهبت للندوة في هذا اليوم بالتحديد؟!...

_أين طبعت المنشورات؟!...

_من ساعدك؟!...

_لماذا ربيت ذقنك؟!...

_أنت منضم لأي جماعة؟!...

يتمزق عقلي، يذهب بلا عودة، تُرهب حواسي، لا أفصل بين الحقيقة والوهم، يخطون على جسدي لوحة تعذيب حديثة، مبهمة المعنى، يعذبوني ليعذبوني، لا ليستجوبوني، يستمتعون بتعذيبي وكسر روحي.

***

يمر الوقت بطيئاً كعربة منزوعة الإطارات، فَقَدتُ الإحساس به، اختلطت المواقيت عندي، تضيع الساعات والأيام، ويسقط الزمن في المعتقل، إلى أن تعرفت عليه، يطلقون عليه المؤرخ، هو الذي يؤمنا في الصلاة بعد أن نتيمم، يقوم بحساب المواقيت و الأيام بطريقة الشعور، يقول لنا: أظن اليوم كذا، والساعة كذا، يؤذن الفجر عندما يشعر بأنه وقته، ويؤذن للظهر عندما يشعر بأن موعده قد حان وهكذا.

حصة الماء لا تكفي، وكمية الطعام قليلة جداً لا تسد جوع نملة نحيفة، بلا ملح، بلاَ طَعْمِ، مجرد كتل صغيرة لا نعرف ماهيتها، إحساس الجوع والعطش لا يفارقاني، أصبح جسدي هشاً، أتحرك

بكسلٍ وخمول، قال لي المؤرخ: لقد مرت شهور وأنت هنا، عندما جئت كان الصيف وجوه الحار، والآن البرودة تخترق الجسد، وتعشش في العظام، إنه الشتاء يا كريم.

أصابني يأسٌ وإحباطٌ: الأيام تمر ولا بارقة أمل في الخروج، قلقٌ على أمي، لن تتحمل غيابي، ومصيري المجهول، وددت أن أطمئنها، أن أخبرها بمكاني لتهدأ.

نظرت للمؤرخ وقلت له: الوقت هنا يمر أو يتوقف لا فارق، ما جدوى تعبك في التنبؤ به وجلب المزيد من العذاب؟!...

_حتى أشعر بأني عائش يا كريم.

***

أسندت ظهري على الجدار، الغرفة صارت تجسيداً عملياً لكروية الأرض ودورانها اللانهائي، لا أرى أحداً بالغرفة، عبد القادر يقف بملابسه الداخلية ضاماً يده إلى جسده، ينظر للأرض بذلٍ وانكسار، لا أرى أحداً أمامه، صوتٌ كالصدى ينبعث من كل مكان.

_على الأقل يا أستاذ عبد القادر خَفْ على سهام ونور، أتحب أن يشرفونا هنا؟!...

يتشنج جسده ويهتز بعنف، يتحرك حركات عشوائية صارخاً: ابتعدوا عن زوجتي وابنتي، ليس لكم دعوة بهما.

_حاول أن تتعاون معنا يا عبد القادر، أنت إنسان مثقف، وتعرف أن كل ما نفعله من أجل مصر وحماية أمنها، و في حب مصر قد نفعل أي شيء، وقد نخدمها في سهام ونور.

_ليس لكم دعوة بهما، ابتعدوا عنهما يا أولاد الكلب.

***

استيقظت صباحاً على صوت يوسف وهم يأخذونه، عاد بعد مدة وهو ينزف من كل أجزاء جسده، أسرعت إليه، أخذته بين ذراعي: ماذا فعلوا بك يا يوسف؟!...

أرحت رأسه على رجلي، يفقد الوعي ويفيق، ينظر لي نظرات مشتتة حزينة، يهمس بضعفٍ ووهن:

_كريم! لو ربنا كتب لك الخروج من هنا، أمانة عليك تذهب لأمي تطمئنها، قُل لها ابنك عند رب كريم.

وضعت يدي على فمه حتى يصمت، قلت له:

_لا تتكلم يا يوسف، استرح يا صديقي.

قال بصوتٍ متقطع: من أجل خاطري يا كريم لا تقاطعني.

سقطت دموعي على وجهه؛ مسحتها بسرعة، حاولت أن أبتسم حتى أهون عليه، كانت ابتسامات حزينة تنعيه.

_كلم بتول قُل لها إني أحبها جداً، كنت أتمنى أن نعيش في بيت واحد على سنة الله ورسوله، قُل لها تُسلم على منار ابنتنا التي لم تأت.

أُجهش بالبكاء، ينظر في كل مكان بالغرفة، تتعلق يده بيدي في محاولاتٍ للتخفيف عني.

_سأفتقدك يا كريم، خلي بالك من نفسك.

صَمَتَ و توقفت نظراته الحائرة، يوسف مات، أُصبت بالهياج، أضرب الجدران، وأصرخ بأعلى صوتي: يوسف مات، قتلتوا يوسف يا أولاد الكلب، يوسف مات يا كفرة، يوسف مات، يوسف مات.

أحاطني زملاء الغرفة محاولين تهدئتي..

_اهدأ يا كريم، يوسف في مكان أحسن من هنا، عند ربنا الذي لا يُظلم عنده أحدٌ.

جنودٌ كثيرة تقتحم المكان، يحملون عصي وكابلات كهرباء، أمطروا جسدي ضرباً، لا أشعر بالألم، أنظر لجثة يوسف على الأرض، وأبكي، أصرخ بهم: أنتم سفاحون، قتلة، اقتلوا الجسد لكن الحقيقة ستظل باقيةً، يوسف لن تموت يا حبيبي.

قواي تنهار، تبتلعني الأرض، وتنهار فوقي الجدران، سقطت فاقداً الوعي، أدخل سراديب الموت، أراه يلوح لي، الحزنُ مرسومٌ على وجهه، يقول لي: لا تصدق وجهي يا صديقي؛ فالأرض هنا طاهرة، لا تعرف ظُلماً، ولا قسوة.

أشعر بالبرودة، تفصل بيني وبينه قناة مائية صغيرة، سرعان ما فاضت وملأت المياه كل مكان، أقوم مفزوعاً ودلو الماء البارد يُصب فوقي عند الفجر، رَجلٌ بصوتٍ غليظ يناديني: قوم يا ابن الوسخة يا مدّلّع.

ألتفت حولي، لم أجد جثة يوسف، أخبرني المؤرخ بأنهم أخذوها ليدفنوها، تيممت سريعاً، وتيمم كل الزملاء، وقفنا نصلي عليه صلاة الغائب، سالت الدموع، وتمزقت القلوب، رحل يوسف؛ ليكتب لنا صفحةً حزينةً موجعةً، حقك لن يضيع يا صديقي.

حُلم الوطن المدفون يطاردني، أصبحت كسحابة الانتظار أنتظر ساعة الولادة، ساعة العودة، كلما حاولت النوم أرى الحُلم، أرى يوسف ونور يمرحان حول القبر، يقول لي: لقد أصبحنا أصدقاء.

مرت عشرة أيام على موته، على حسب توقيت المؤرخ، دخل عدة جنود الغرفة فجأة، أمسكوني وسحبوني لغرفة الكهرباء، الشحنة هذه المرة قوية جداً، تألمت أكثر من كل المرات، أخرجوني وألقوا بي في وسط الطُرقة، بعد حوالي ساعة أدخلوني غرفة السياط، ضربوني بشدة عن كل المرات السابقة، تبلد جسدي من كثرة التعذيب، أمرهم نفس الرجل بصوته الذي أصبحت أميزه من بين ملايين الأصوات: لابد أن نحتفل بكيمو، الليلة ليلته. انهالوا عليّ صفعاً وضرباً بالقبضات والأرجل في بطني، وفي الأماكن الحساسة بجسدي، روحي تحاول المرور من بوابة البُعد؛ فتردها قبضة أو صفعة، كل شيء يدور حولي، تختفي الرؤية رويداً رويداً، أسقط فاقداً الوعي.

## (١٠)

شعاع نورٍ ضعيف يوقظني، ينتشلني، أحاول أن أتشبث به قبل رحيله. أفتح عيني بصعوبة بالغة، ألمٌ شديدٌ بها، إنه ضوء الشمس، أغمض عيني وأفتحها عدة مرات حتى اعتاد الضوء، صحراءٌ شاسعة حولي. أنظر يميناً ويساراً محاولاً تخمين جهة أسير بها، ملابسي ممزقة، ذقني طويل، أشعر بعطش شديد، الجو معتدل ودرجة الحرارة ليست عالية، أسير ولا أصل لشيء، أدور في متاهةٍ بلا نهاية، الموت يحوم حولي، يرمقني بنظراته القاسية، يراقبني ينتظر لحظة سقوطي، الظلام يزحف، يظلل الصحراء ببرودةٍ لا تُحتمل، أرى أضواء سيارات من بعيد، أستعيد طاقتي، أهرول بأقصى قوتي ناحية الضوء، تختنق أنفاسي، ألمح صوراً باهتة لجنودٍ يرتدون السواد، يحملون عصيّاً وشوماً وأوعية ماءٍ باردة، أقف خائفاً فيختفون مع الأضواء، الطريقُ خيط آمان، قشة أخيرة ستخلصني مما أنا فيه، وصلت أخيراً، ألوح للسيارات فلا يتوقف أحد، اليأس ينسج خيوطه حولي، أحاول التخلص منه، فيلدغني ويتركني بين الموت والحياة على جانب الطريق.

توقف لي سائق نصف نقل، معه حمولة طماطم، قال لي بتوجس: شكلك خارج من قبر؟!

_خارج من الجحيم نفسه، كنت معتقل لعدة أشهر ورموني هنا.

_أنا لا أريد مشاكل مع الحكومة.

_عطشان.

أعطاني زجاجة مياه، أشرب بلهفة، لا أصدق أن شفاهي تلامس الماء أخيراً.

_ بالراحة حتى لا تتعب.

_هل ستتركني هنا؟!

_اركب. سأذهب لأسيوط، لكن عندما نصل أنت لم تقابلني.

_لا تقلق.

ركبت معه، أعطاني طعاماً كثيراً، أبتلعه بدون مضغ، نظر لي مشفقاً ، وقال لي:

_كُل، أنت على لحم بطنك من الصبح.

ابتسمت وقلت له: أنا على لحم بطني من شهور.

وصلنا أسيوط، أعطاني بعض النقود حتى أقدر أن أصل لسكني، نظر لي قبل أن يغادر وصافحني ضاغطاً على يدي وقال:

_خلي بالك من نفسك.

_ جميلك فوق رأسي.

_ لم أفعل شيئاً.

وصلت البيت بالأربعين، فتحته بواسطة المفتاح الاحتياطي الذي كنت أخبئه أسفل شجرة اليوسفي، وجدته منظم ومرتب، لقد تغيرت الفوضى التي أحدثوها، وهم يقبضون عليّ، قد يكون عم ياسين قام بترتيبه في غيابي، خلعت ملابسي ونزلت تحت الدش، أغسل جسدي وأُسقط أوجاعي، ألقيت بجسدي على السرير، وغبت في نومٍ عميق.

استيقظت ليلاً على صوت جرس البيت، قمت مفزوعاً، متوجساً خائفاً، إنه عم ياسين، أخذني بالحضن.

_الحمد لله على سلامتك يا كريم يا ولدي، رأيت النور مضاءً جئت جرياً، نورت والله، كنت مفتقدك جداً.

_الله يسلمك يا عم ياسين، سامحني شغلت البيت على الفاضي فترة كبيرة.

_ماذا تَقول يا ولدي، المهم سلامتك، و السكان لا يقفون طوابير على البيت، أنت واحد من أولادي يا كريم.

_ربنا يديم المعروف والود بيننا يا عم ياسين.

_إن شاء الله. ولا يهمك يا كريم، أنت رجل وكل حاجة بتمر. على فكرة أنت نجحت في سنة إعدادي، لكنك رسبت بالمادتين اللتين لم تحضرهما، ودخلت قسم ميكانيكا.

_ممن عرفت؟!

_عمر صاحبك يأتي دائماً يسأل عنك، ويقول لي الأخبار أولاً بأول. امتحانات الترم الأول اقتربت على الانتهاء، حاول تعوض في الترم الثاني حتى تقلل المواد في السنة القادمة ولا تتعب، أيضاً يجب عليك تقديم تظلم حتى تأخذ التقدير الحقيقي لنصف السنة الذي كنت معتقلاً فيه.

_على الله يا عم ياسين، كله محصل بعضه، لا يفرق معي الآن تعليم أو أي حاجة خالص.

ربت على كتفي وهو يغادر: أتركك ترتاح، على فكرة والدتك جاءت هنا، كانت تبحث عنك، أخبرتها باعتقالك، رتبت البيت ونظفته، حاولت معها حتى لا تتعب نفسها، لكنها أصرت وقالت لي: من أجل كريم عندما يخرج يجده مرتباً ونظيفاً. طمئنها يا ولدي.

شريحة هاتفي المحمول لا تعمل، ذهبت إلى مركز اتصالات وقمت بإعادة تشغيلها، وجدت كمية مهولة من الرسائل، من أمي، ومن هبة، وأمجد، رسائل كثيرة من بتول، تسأل عن يوسف، تقول إنه أعطاها رقمي لأستخدامه عند الضرورة.

اتصلت بأمي، ردت عليّ خالتي عزة، عرفتها من صوتها.

_كريم! أين أنت يا حبيبي، أوحشتني جداً.

_وأنتِ أيضاً أوحشتني، خرجت اليوم من المعتقل، أين أمي؟!

_أمك بخير يا حبيبي، ثواني أخلها تكلمك.

_أمي، أوحشتني جداً جداً.

_وأنت أيضاً يا نور عيني.

_صوتك مرهق يا أمي.

_أنا بخير يا حبيبي، لا تقلق عليّ.

_صارحيني يا أمي.

_لا شيء يا حبيبي، تعب قليل وراح لحاله.

_ألف سلامة عليكِ، سامحيني لأني لم أكن بجوارك.

_مسامحاك دائماً يا ضنايا، ولا يهمك، أنت قوي وستمر من هذه الفترة، كل حاجة ستكون أحسن إن شاء الله.

_سأمكث هنا قليلاً بعض الأيام، أرتب أموري، ثم سأنزل.

_انزل على طول، لا تنتظر.

_أرجوكِ يا أمي، لابد أن أذهب لبيت يوسف، معي أمانة يجب توصيلها.

_كيف حاله يا حبيبي؟
_هو بخير يا أمي، سأحكي لكِ كل شيء عندما أعود.
_ربنا معك يا كريم.

***

كل المشاعر معادة، كل الأحداث مكررة، الظلام هنا كالمعتقل تماماً لا فارق، الموتُ يحيا بين السكون، يخطف النور، يبعث برسائله مع شعاع الشمس، لا تقترب؛ فالموت يحلق هنا، يرسم قسوة على الجدران.

لا أستطيع الاتصال ببتول، وإخبارها بموت يوسف، سأبعث لها برسالة على هاتفها:

_أختي العزيزة بتول:

لا أعرف من أين أبدأ، أو ماذا أقول، لكنه ثقل الأمانة التي حملني إياها يوسف، كانت آخر كلماته: قُل لبتول أني أحبها جداً، كنت أتمنى أن نعيش في بيت واحد على سنة الله ورسوله، قُل لها تُسلم على منار ابنتنا التي لم تأت.

إنا لله وإنا إليه راجعون، يوسف مات بين يدي بالمعتقل، كوني قوية، هو أرادكِ أن تكوني قوية، رسمكِ بكلماته، كنتِ أنتِ من يُهَوِّن عليه كل ما يحدث، هوني عليه الآن، ادعِ له.

سأتصل بكِ عندما أستطيع، يوسف كان لي كل شيء، ولا أتخيل حياتي بدونه، ربنا رحيم.

أخوكِ دائماً كريم.

كم هي الدموع عاجزة عن وصف الألم، أو رسم حزنٍ صغيرٍ في القلب، هي مجرد إشارة لوجعٍ يعتري الروح، ومرارة تطفح على العين، دموعي يا

صديقي عليك لا تفعل شيئاً سوى مواساتي وتجفيف منابع حزني، أراكَ في كل شيءٍ حولي، الطريق مغلق دونك، والإشارة تجمدت بحلول شتاء رحيلك.

أجلس في ركن الصالة، أضع رأسي بين ركبتيّ، ويديّ فوق رأسي، أسمع صوت هبة قادمٌ من الخارج تناديني، أخرج إليها مسرعاً، تقف في الحديقة قمراً ملوناً ببريق الأمل.

_كريم، كريم!...

_هبة، هبة!...

أقف واجماً أمامها، أرى كل ما مر بي في لحظة عبوري الباب، تقذفني صاعقةٌ رعديةٌ؛ فيهتز جسدي مع وجع روحي، أقف كورقة شجرة ضعيفة، تطوحها الرياح العاصفة، تهرول نحوي، تأخذني بين ذراعيها.

_الحمد لله على سلامتك يا حبيبي.

_الله يسلمك يا حبيبتي، أفتقدك جداً يا هبة.

_وأنت يا نور عينيّ، لم تفارقني لحظة، كنت دائماً أمامي، أحكي لك كل شيء أمر به.

الدموع تفر من عينيّ نهراً، تهاوى الوجه الباسم الذي حاولت رسمه أمامها، تمد يدها تمسح دموعي، تضع عطرها بقلبي باقة ورد فرحة.

_لا تبكِ يا حبيبي، كل شيء سيصبح أفضل، ربنا لا يُضيعُ حقَّ مظلوم أبداً.

_هذه ليست بلدنا يا هبة.

لم تنصحني هذه المرة، لم تمنحني زهرة للأمل كما تفعل كل مرة، صمتت، ابتسمت باكية

_المهم أنك معي الآن يا حبيبي.

_ربنا يخليكِ لي يا حبيبتي.

_تبقي لي امتحانان وأنهى هذا الترم، فلنسافر معاً.

_سأذهب لبيت يوسف أخبرهم بموته، ونسافر سوياً.

_يوسف مات؟!

_البقاء لله.

ازداد وجومها وصمتها، لم تقل شيئاً، خرجت من عالمنا الصادم لعالمٍ آخر، تظلله سحابات حبٍ، وتمطر به أمطار الخير، نظرت لي نظراتٍ مشتتةً، وقالت:

_سأتركك الآن وسنتقابل عند عودتك، أكون قد أنهيت امتحاناتي أنا أيضاً.

***

ركبت القطار من محطة أسيوط، وصلت طما، سألت عن بيت الشيخ جلال شيخ البلد والد يوسف، تطوع أحد الأهالي، وأوصلني للبيت بعد أن علم بأني صديق يوسف ابن الشيخ.

_ يا شيخ جلال، يا شيخ جلال.. أحد أصدقاء يوسف يسأل عنك.

خرجت الأم مهرولةً، علامات الحزن تبدو على ملامحي وتكويني، توقفتْ أمامي لا تريد الاقتراب، علمت بقلبها ما جئت من أجله، نظرت بعيني فخفضتهما، قالت بصوتٍ مرتعش: هل تعرف شيء عن يوسف؟! طمئني يا وليدي.

نعجزُ عن منع دموعنا عند الحاجة، تهزمنا وتبقينا كجذع شجرة جافٍ في صحراء الوجع، بكيتُ فبكت بكاءً فياضاً، اقتربت مني، أخذتني بين ذراعيها:

_طمئني يا وليدي.

_آخر ما قاله يوسف قبل أن يموت طمئن أمي، قل لها لا تحزن أنا عند رب كريم.

_ابني مات! ابنك مات يا شيخ جلال، الحكومة قتلت ابنك يا شيخ جلال.

_من أجل خاطري يا أمي ادعُ له.

_إنا لله وإنا إليه راجعون. أنا مؤمنة يا بُني، لكن الصدمة شديدة عليّ، قلبي يُقطّع، يوسف النسمة الهادئة مات؟! ماذا فعل؟! لماذا قتلوه؟! أين جثة ابني؟!

تجمع كل أهالي البلدة: هوني عليكِ يا حاجة، قولي لا إله إلا الله.

أخبرني الرجل الذي قام بتوصيلي بأن الشيخ جلال منذ اختفاء يوسف ابنه الوحيد مرض، أصيب بجلطة في المخ، هو الآن طريح الفراش.

_ادعُ له يا أمي، هو بحاجةٍ لدعائك، يوسف والله كان أكثر من أخ، أحس أنه من لحمي ودمي.

عُدت محملاً بالجراح أكثر، أي ظلم هذا الذي نعيش به؟! أي ظلام نسير به؟! الشمس اختفت ولا سبيل لخروجها؛ لتهدي الحيارى، لتضمد جراحنا.

لا أريد أن أرى أحداً، الدنيا تضيق بي، أشجار الطريق تُضيقه، تخنقني بفروعها، الطيور تغني أغاني قبيحة تجعل النفس تموج غضباً. لماذا أنت يا وطن قاسٍ علينا، نحن أبناؤك، نحن زرعناك على جانبي النيل، نحن أوجدناك. أراه وطناً جريحاً، كل جرح فينا به، كل جائع يجوع معه، كل مريض يتألم مثله. أيها الوطن ترفق؛ فما عدنا قادرين.

أنت يا وطن فكرةٌ مسافرةٌ، روحٌ محاولةٍ لا تمل، نخطو معك فوق حُلمك فنتعثر، فتقوم تنفض عنا تراب السنين المعفر بقسوة الحياة.

أنت نورٌ يحارب الظلام، لا ينتصر، يتشكل إنساناً يرنو نحو الحلم، فتأتي شظية مظلمة تفسمه نصفين: فيقوم قلبه بمعالجته جينياً، ويصبح الانقسام انشطار فكرتين، ألمين، روحين، جسدين.

لا وقت للحياة، فالحياة هي أنت، افتح ذراعيك للموت، لا تخف، واشدد على ذراعك وناول روحك عقار الصبر، عيونك المتحجرة ستنهمر منها الدموع عند نقطة الضوء، لا تيأس ولتقاوم ضعفك، لا يهم الوصول، فالسير في الطريق هو الفردوس.

أقف على صخرة الوجع، أشير للطيور أن ترتد للوراء: فالطريق مبعثر وصقور الخوف تملأ السماء، أقف صارخاً كخيال مآتة فقد عشب أحشائه، أغرد للألم، أقضم تينة السعادة النيئة، فتصيبني بالمرارة، أقفز لأعلى مصطنعاً التحليق، يكسو الجليد وجهي، فأحرك يدي عليه، فتتجمد هي الأخرى، وتثبت الصورة كأصنامٍ تنتظر وقت التكسير.

أنت يا وطن إناءٌ جف ماؤه، تبخر ووصل لسحاب الحلم الهش: فسقط من فوقه، تقدم أو تأخر فالندوب على جسدك لن تزول.

***

الظلام يجثم على صدري، يَضيق الصندوق عليّ، أحاول الخروج للنور، أضرب جوانبه بكل قوتي، يدٌ تُطبق على رقبتي، تكتم أنفاسي، وتُرسلني لأرض الموت، أصرخ صرخاتٍ مكتومةً تضيع في العدم،

ينتشلني ضوء الغرفة، أراه من بعيد طوق نجاه؛ فتتشبث به روحي، أقوم مفزوعاً، صارخاً، يتصبب العرق من كل جسدي، أنظر حولي خائفاً، مازلت على السرير، يأتيني صوت عبد القادر من الخارج، فأصاب برعدة كهربائية، أتحسس جسدي، ألمس جدران الغرفة؛ لأتحقق من أني لست بالمعتقل.

يرن هاتفي، إنها هبة، يأتيني صوتها فراشة سلام...

_كيف حالك الآن يا حبيبي؟!

_بخير يا حبيبتي، ما هي أخبار الامتحانات؟!

_كله بخير، لا تقلق عليّ.

صوتها يخفت مع تداخل الأصوات بعقلي...

_أحبها يا كريم، أراها في كل شيء حولي، في السحاب، وفي النيل، وفي وجوه المارة، وعلى تراب الأرض.

أقول له باسماً: أتركها على تراب الأرض، وانتبه لمستقبلك قليلاً.

ضحكات يوسف تغزوني، ترسم زمناً وتاريخاً لا ينتهي، قبل ميلاد البشرية خلقت روحه تغرد على أغصان الكون، علّمتْ الإنسان الأول معنى الحب، جاءت في زمني، أعطتني ألماً ورحلت.

_كريم! كريم!

_هه! معكِ يا هبة.

_هانت يا كريم، كلها امتحان واحد ونسافر.

_ربنا يوفقك يا حبيبتي.

_أروح أكمل مذاكرتي الآن، سلام يا أجمل حاجة في حياتي.

_سلام يا أكبر نعمة ربنا بعثها لي.

يصرخ عبد القادر: إنهم قادمون.

أخرج مسرعاً للصالة، أراه ينظر بخوفٍ من النافذة. يتنقل من واحدةٍ إلى أخرى.

_إنهم قادمون، لابد أن أنقذكما منهم.

يتجه بسرعة ناحية نور، يقول لها: لا تخافي يا حبيبتي، لن أدعهم يؤذونكِ. تعالي إلى حضن بابا.

ينظر إليها بحنانٍ جارف لا مثيل له، تتجه ناحيته متوجسةً، تتحرك ببطءٍ، يضمها بين ذراعيه باكياً، تمتد يده لفمها، يكتم أنفاسها، تحاول أن تُفلت بلا جدوى، تجري عليه سهام صارخة:

_ماذا تفعل يا مجنون؟!

تتعلق برقبته، تغرس أظافرها بها .

_اترك البنت يا مجنون.

يُحكِم الإمساك بها، يضرب سهام في وجهها بقوة؛ فتسقط فاقدة الوعي.

_لن أدع أحداً يؤذيكما.

يختفي من عيني نور بريق الحياة، تقل حركتها، يقبلها على رأسها...

_سامحيني يا حبيبتي.

تتلاشى حركتها، يتركها بعد تأكده من موتها، يضعها على السجادة، يسحب سهام لداخل الحمام، يملأ البانيو بالماء، يقوم بتغطيس رأسها به، تفيق وبمحاولات يائسة تحاول أن تسترد روحها الراحلة، تحرك يديها وساقيها حركات عشوائية، يبكي بحرقة وبئن...

أقف باكياً، مكبَّلاً عاجزاً، نور ماتت ولم أفعل شيئاً، سهام تستغيث بي ولا أجيب، يهمد جسدها، يتركها ويسحبها للصالة، يضعها بجوار نور، يدخل غرفة الطلمبات بالحديقة، يجلب فأساً ومعولاً، يحفر بالحديقة، أصوات الحفر تصم آذاني، تزداد وتصيبني بالرجفة.

أطوف حول الجثتين، تنهمر دموعي دافئةً، صوت الحفر يخترق وجداني، ويترك أرضي مزلزلة، دخل عبد القادر، ملابسه مليئة بالأتربة، حمل سهام، اتبتعه بنظرات مشتتة حزينة، وضعها بالحفرة التي حفرها بين أشجار اليوسفي، عاد وحمل نور ووضعها بجوار أمها،

يُهيل عليهما التراب، بكاؤه يُميت، يقوم بتسوية الأرض ورشها بالمياه، يزرع فوقها بعض النباتات والزهور، يرويها ويروي كل الحديقة، يأتي الليلُ فجأة يتبعه نهارٌ، ما يزال يقوم بالري، تغرب الشمس وتشرق عدة مرات، أصبحت الزهور والنباتات قوية، يدخل يستحم، يرتدي سترةً أنيقة ويخرج.

***

أجلس جامداً على سريري، أرى نور حولي، تضحك، تبكي، تصرخ، تغني، تقف أمامي باسمةً، تمد لي يدها، أنكمش على ذاتي، احتضن ركبتيّ بذراعيّ، جنينٌ طُرد من رحم الوطن بلا حبلٍ سُرى، تساوت لديَّ المرتفعات بالمنخفضات، النيلّ يجلدني، يقيدني بالأغلال، العين لا ترى، والقلب ضاع وسط الزحام، النوم يناديني، يشق قلبي نصفين، أسمع صوت هبة من أعماق روحي يصرخ بي: لا تتحطم.

أسقط من منحدرٍ كبير، الظلام يقتلني، أسمع أصوات طيورٍ شرسة تحوم حولي، تمد مخالبها نحوي، أصرخ، تضيع صرخاتي بين الغيوم وظلامٍ لا ينتهي، تومض حولي وجوه كل من عرفتهم بسرعة خاطفة، كل الوجوه سواء إلا وجهها، يمنحني قوةً وأملاً، صوتها يُبعد الطيور ويمنحني خيطاً نورانياً، أتمسك به؛ فأهبط على أرضٍ عشبية بهدوءٍ ونعومة.

أراه من جديد، ذلك الرجل الذي يُقاد للدفن، ينظر لي نظراتٍ رائقةً رغم حزنها، يقول لمن حوله: لا تفعلوا يا أبنائي، لكنهم لا يسمعونه، قلوبهم أُوصِدَت بأقفالٍ صدئة، تتسلقني نباتات الحزن والألم، أرى فراشة ملونة تعبر الطريق..فتهدأ روحي.

يحفرون قبره وهم ينتحبون، تهتز أيديهم وهم يحملون المعاول والفئوس، يضعونه ولا يقاوم، يبتسم ابتسامة المكلوم، يُهيلون عليه التراب، يخفون جسده، يضعون يافطة على قبره مكتوب عليها " هنا يرقد الوطن ".

يأتي صغير يشق الصفوف، عيناه ثاقبتان كالصقر، يضع نبتة جافة على القبر، تتساقط دموعه ويهمس قائلاً: لن أفقدك يا أبي.

تهتز الأشجار بعنفٍ، تَشُق الأرضَ قناةٌ مائية صغيرة، تُشكِّل صورةً مصغرةً للنيل، تصل للقبر؛ فتخضّر النبتةُ الجافةُ، يهتز القبر، تخرج يدٌ منه، تُضم القبضة، تبدأ في إزاحة التراب؛ فيخرج الرجل واقفاً، ينفض ما علق على ملابسه، عيناه ناصعتان، عضلاته مستعدة.

أستيقظ على صوت هبة، أخرج إليها مسرعاً.

_ الدنيا مقلوبة في السويس والقاهرة يا كريم.

_ ماذا يحدث ؟!

ـ غضبٌ شديد في السويس، القاهرة أيضاً تغلي، الناس خرجت أخيراً يا حبيبي، يقفون ضد الظلم والاستبداد، شبابٌ مثل الورد يهتف لإسقاط النظام الفاسد المستبد، مصر استيقظت يا كريم، مصر استيقظت.

القطارات متوقفة، لا يوجد وسيلة للسفر للقاهرة، ذهبت إلى عم ياسين، عرض عليّ المكوث معه حتى تنتهي الأحداث، أخبرته بأني يجب أن أسافر الآن، أمي ستموت من القلق وخصوصاً بعد قطع الاتصالات، اتفق مع أحد السائقين من معارفه بأن ينقلنا للقاهرة بسيارته " ميكروباص ياباني " وأن يأخذ ما يريد.

أجلس أنا وهبة خلف السائق، أمسك يدها بقوة، تختلط مشاعري " حب، كره ، رغبة في الانتقام " تجلس نور في المساحة الصغيرة التي بيني وبينها، تضغط على أيدينا، تبتسم وهي تقلب بصرها بيننا، تضحك فترن ضحكتها داخل قلبي، تتحرك بين الكراسي بنشاطٍ زائد، تُشير إلى أذنها، وكأنها تريد أن تُسمعني شيئاً، أسمع دوياً كدوي النحل يأتي من كل مكان، ما هذا الصوت الذي يخلع قلبي، تشير للخارج عبر زجاج النافذة، بشرٌ كثيرون يشغلون حيز كل الأماكن حولنا، سرعتهم تكاد تساوي سرعة السيارة، أراهم في كل مكان، بمحاذاة النيل وترعة الإبراهيمية، فوق الأشجار وبداخل الماء يسبحون، يملئون الصحراء كأنهم بذوراً منثورة، يدخلون السيارة عبر زجاج النافذة.

تنظر لي هبة باستغراب، تقول لي: ماذا يحدث يا حبيبي؟!

_لا شيء يا حبيبتي.

تخرج نور للخارج، تدور بجسدها، تتطاير تنورتها القصيرة، ضحكاتها تملأ المكان، يفسحون لها طريقاً لتسير كما تريد، أرى سهام بينهم، عبد القادر يتحرك في وسطهم، يلوح لي يوسف من بعيدٍ مبتسماً.

_مصر تفتح صفحةً جديدةً يا كريم، مصر تصحو من غفوتها.

_أتمنى يا هبة، مصر تستحق بداية أفضل.

أرى أمواجاً بشرية تتدفق من كل مكانٍ كالسيول، يملئون الطريق، أشير للسائق بحركة عفوية ليتوقف حتى لا يصطدم بهم، لكنه يخترقهم وينفذ من خلالهم، يهتفون بكل قوتهم "الشعب يريد إسقاط النظام، تحيا مصر، تحيا مصر".

_تمت_

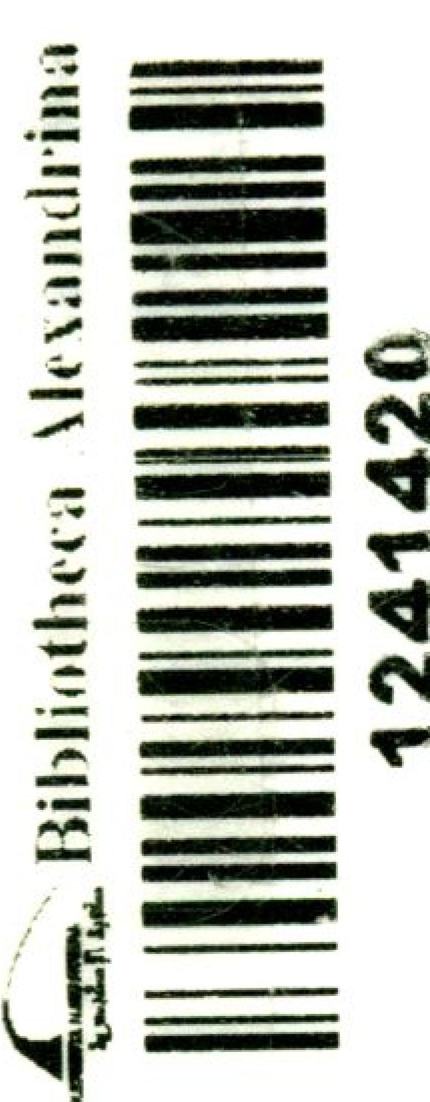



Noon_publishing@yahoo.com

ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢ ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧

# وجه المرايا

أنام على جنبي الأيمن، أشعر بشخص يجلس ورائي، إنها نفس الفتاة الصغيرة، تلمس بيديها الندوب التي امتلأ بها ظهري، تكتم صرخاتي، أشعر بأني مشلول لا أقدر على الحركة، ماذا يحدث لي؟! تسقط دموعها فوق ظهري، يتحول الجدار أمامي لمرآة، أنظر للصورة المنعكسة لصورتي، إنها لشخص آخر!! أصرخ بكل قوتي، أقوم مسرعا أغسل وجهي ورأسي بالمياه الباردة، أتحسس وجهي وأنا أشاهده فى المرآة التي فوق الحوض، مازلت أشعر بتلك الندبا ... زاء جسدي، أشعر بلمسة يدها فوق ظهر ... رات دموعها.. أشعر بحزنها.






ISBN 9789776436701